ظهورات فاطمة

طبعة أولى

٢٠١١

❊

منشورات المكتبة البولسيّة

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص. ب : ١٢٥
هاتف : ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس : ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف : ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس : ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس : ٠٨/٨١٢٨٠٧

سلسلة ظهورات

٢

ظهورات فاطمة

أديب مصلح

٢٠١١

الفصل الأَوّل

طفولةٌ ملائكيّة

بلدة فاطمة

فاطمة دسكرةٌ صغيرةٌ في قلب البرتغال، مؤلّفةٌ من بيوتٍ وضيعةٍ، ملتفّةٍ حول الكنيسة والمقبرة الصغيرتين، وسط تلالٍ يناضل القوم للعيش فيها، جاهدين في استثمار أَراضٍ قليلة الخصب، جهدًا يجمعهم على معاناةٍ يوميّةٍ صابرةٍ، معاناةٍ ترهق الأَجسام، ولكنّها تطهّر الأَرواح، وتسمو بها، وتقوّيها في التضامن، ونبل القلوب.

ولطالما عُهد عن البرتغاليّين تكريمهم لأُمّ اللّه المنزّهة من كلّ دنس، وثباتهم في وفائهم لها، فهم، مع كلّ ما عانَوا من احتلالٍ غريبٍ، لم يحيدوا عن تعلّقهم بشفيعتهم السماويّة، ولم يفتر حبّهم لها.

إنّ معظم كاتدرائيّات البرتغال مكرّسة على اسم مريم، بحيث سمّيت البرتغال «موطن العذراء». وكان الملك جان

الرابع قد كرّس مملكته رسميًّا لسيّدة الحبل بلا دنس، بتاريخ ٢٠ تشرين الأوّل ١٦٤٦، أي قرنين قبل إعلان عقيدة الحبل بلا دنس.

فلا بدعَ إن اختارت أُمّ الله تلك البلاد الوفيّة كي تسفر، فيها، عن رغبات قلبها، وتبلّغها من هناك إلى العالم أجمع.

وبلدة «فاطمة» مدينةٌ باسمها هذا إلى أميرةٍ أندلسيّةٍ رائعة الجمال، وقعت في أسر البرتغاليّين. وقد كَلِف بحبّها القائد الذي أسرها، فطلب يدها من الملك. وعشقت الأميرة القائد، فاعتنقت المسيحيّة وتزوّجته، وتحوّل اسمها إلى «أوريتا». وأهداها الملك ضيعةً أطلق عليها اسمها، وشيئًا فشيئًا تطوّر هذا الاسم إلى «أوريم»، وهو الاسم الذي تُعرف به تلك المنطقة، اليوم.

وما انقضت سوى سنواتٍ معدوداتٍ حتّى توفّيت الأميرة، فحزن القائد عليها حزنًا شديدًا، فزهد، وترهّب، وابتنى، على مقربةٍ من «أوريم»، ديرًا دفن فيه جثمان زوجته، وأطلق عليه اسم «فاطمة». وعلى مقربةٍ من هذا الدير نمت قريةٌ حملت، أيضًا، اسم «فاطمة».

الرؤاة

على مسافة نحو أَلفٍ وثلاث مئة مترٍ من بلدة «فاطمة»، تربض قريةٌ صغيرةٌ تُدعى «الجوستريل» (Aljustrel)، مؤلّفةٌ من بضعة بيوتٍ يعيش أَهلها عيشة الكفاف، على زراعة القمح والبقول والخضراوات اللازمة لمؤونتهم، وعلى تربية مواشٍ قليلةٍ.

وفي هذه القرية كانت أُسرتان مرتبطتين بأَواصر النسب: أُسرة «أَنتونيوس دوس سانتُس» وزوجته ماريّا روزا، ولهما سبعة أَبناء، منهم ستّ بناتٍ، أَصغرهنّ «لوسيّا يسوع»، المولودة في ٢٨ آذار ١٩٠٧ يوم الخميس العظيم، والمعمّدة في الثلاثين من الشهر عينه، فيما كانت أَجراس الكنائس تقرع مبشّرةً بقيامة الربّ.

وكانت شقيقة ربّ هذه الأُسرة، أولمپيا، قد تزوّجت من

شقيق ماريّا روزا زوجة أَخيها ـ أَي إِنّ كلاًّ من زوجها وأَخيها كان قد اقترن بأُخت صهره. غير أَنّها، إِثر ترمّلها منه، اقترنت بمانويل پيدرو مارتو، وأَنجبت منه سبعة أَبناء، أَصغرهم فرنشيسكو، المولود في ١١ حزيران ١٩٠٨، والمعمّد في العشرين من الشهر عينه، وياشنتا أو هياسنت المولودة في ١١ آذار ١٩١٠، والمعمّدة في التاسع عشر من الشهر نفسه.

وكانت الأُسرتان تنعمان، في القرية، بسمعةٍ عطرة. وقد شهد أَحد الكهنة: «إِنّ والدَي فرنشيسكو وهياسنت شخصان ممتازان، راسخا التقوى، يحظيان باحترام الجميع وبحبّهم. لقد عُهد عن الوالد أَنّه أَكثر أَهل القرية جِدًّا، وأَنّه عاجزٌ عن خداع أَيٍّ كان... أَمّا والدة لوسيّا فهي امرأةٌ مستقيمةٌ، تقيّةٌ، محبّةٌ للعمل».

والد فرنشيسكو وهياسنت، مانويل پيدرو مارتو، مع كونه أُمّيًّا، كان يتمتّع بخبرةٍ راسخةٍ، وبشخصيّةٍ منيعةٍ. كان متواضعًا، شفّافًا، جادًّا، حكيمًا، جذّابًا، كلِفًا بالصدق، لبقًا في الحديث، سديد الرأي، صائب الحكم، وطيد الإِيمان.

وكان يؤلّف، مع زوجته أولمبيا، أُسرةً متّحدةً، متكاملةً، أُسرةً وصفتها لوسيّا، لاحقًا، بأنّها كانت «مثالاً للسلام والفرح»، حيث الجميع متفاهمون، متحابّون، ويضحّي كلٌّ منهم في سبيل الآخرين، أُسرةً حيث الإيمان حيٌّ، معاشٌ بكثافةٍ، ويُرسَّخ في قلوب الأفراد منذ فجر حياتهم.

أمّا أنتونيوس دوس سانتوس، فقد شهدت فيه زوجته ماريّا روزا: «لقد كان، دائمًا، مؤمنًا ملتزمًا، دائبًا على العمل حتّى في شبابه. لذلك أحببتُه واقترنتُ به. كان، دائمًا، وفيًّا لواجباته الدينيّة والمدنيّة، وكان يحبّنا حبًّا جمًّا، أنا والأولاد. عندما أنبأته أنّ اللّه سيرزقنا ابنًا سابعًا، أجاب: «لا تحزني. هذه بركةٌ منه تعالى. مجيء هذا الولد لن يسبّب نقص الخبز في أدراجنا، ولا نقص الزيت في جرارنا». وقد شهدت، لاحقًا، لوسيّا في أبيها: «لم يكن يخاصم أحدًا، لا داخل الأسرة ولا خارجها، كان يحبّ إرضاء الجميع، ورؤية الجميع سعداء». لم يكن يرضى ـ وكذلك كانت والدتنا ـ أن يطأ فقيرٌ عتبة بيتنا، ويعود خالي الوِفاض... ماذا كنّا نعطي؟ أحيانًا قليلاً من البطاطا، أو قصعةً من الفاصولياء المجفّفة أو من

والدة لوسيّا: ماريّا روزا دوس سانتُس

الحمّص. وأَحيانًا كنّا نملأ قواريرهم زيتًا، أو نعطيهم قطعة خبزٍ وجبن غنم، أَو حفنة زيتون. وغالبًا ما كانت والدتي، عند ابتياعها اللحم لوجبة الأُسرة، تأتي بقطعة لحمٍ إِضافيّةٍ، كنت أَلفّها بورق ملفوفٍ، وأَضعها جانبًا، كي تكون نصيب أَوّل مستعطٍ يطرق بابنا.

ماريّا روزا، والدة لوسيّا، كانت قويّة الشكيمة والشخصيّة، تضحّي، بلا كللٍ، في سبيل الجميع. كانت تعلّم فتيات القرية الحياكة والخياطة. وعندما كانت النسوة منهمكاتٍ في أَعمال الحقول، كنّ يوكلنَ إِليها صغارهنّ، فترعاهم، وتلقّنهم مبادئ التعليم المسيحيّ، صيفًا، في فناء بيتها، بعد القيلولة، وشتاءً، قرب الموقد، بعد العشاء. وقد اعترف كثيرون أَنّ تعليمها كان خيرًا من تعليم كاهنٍ. فلا عجب إِن غدت لوسيّا، في السادسة من عمرها، تعرف عن مبادئ الدين المسيحيّ، أَكثر ممّن تابعوا دروسًا نظاميّةً، وكان الكاهن يدعوها إِلى الإِجابة على أَسئلةٍ تعذَّرَ، على من يفوقونها سنًّا، الإِجابة عليها.

وبمناسبة أَعراس القرية، كانت ماريّا روزا تُستدعى للإِشراف على إِعداد الطعام، وفي الأَمراض الطارئة، كانت تُستدعى للإِسعاف والمعالجة.

كانت من النساء المعدودات اللائي يحسنّ القراءة والكتابة، في قريتها، آنذاك، وكانت كَلِفةً بالمطالعة، وتشارك الآخرين بثمار مطالعاتها.

وقد اختارت السيّدة العذراء أَصغر أَبناء الأُسرتين، أَي لوسيّا صغرى أَبناء أَنتونيو وماريّا روزا دوس سانتوس، وفرنشيسكو وهياسنت أَصغر أَبناء مانويل پيدرو مارتو وزوجته أولمپيا، فظهرت لهم، وبلّغتهم رسائل خلاصية للعالم أَجمع.

لوسيّا

نعمت لوسيّا بطفولةٍ سعيدةٍ. فبصفتها صغرى الأُسرة كان والدها وأخواتها يدلّلونها. وهي كانت تتميّز بذكاءٍ مبكّرٍ، وبذاكرةٍ عجيبةٍ. فقد كانت أُمّها تهدهدها على أَنغام الأَناشيد الدينيّة، وكان أَوّل ما حفظته صلاة «السلام عليك يا مريم»، إِذ كانت أُمّها تلقّنها لأُختها كارولين التي تكبرها، بخمس سنواتٍ، فيما كانت تحمل ابنتها الصغرى، لوسيّا، على ذراعها. وكان والدها يؤثرها بحبّه، وهي كانت شديدة التعلّق به، والتأثّر بإِيمانه، وحسّه الدينيّ، وورعه، وقد تعلّمت منه الكثير.

وفي الأَماسي كانت ماريّا روزا تقرأ على مسامع أُسرتها مقاطع من الكتاب المقدّس ومن الإِنجيل، ونصوصًا عن ظهورات العذراء في العالم. وكانت قراءات حقبة الصوم

الأب كروز معرّف لوسيّا الأوّل،
ومن أوائل رُسُل فاطمة

تدور كلّها حول آلام الربّ، وكانت لوسيّا تحفظ كلّ ما تسمع وترويه لأترابها.

في السادسة من عمرها، أمست لوسيّا ملمّةً بالمبادئ المسيحيّة إلمامًا يؤهّلها للاحتفال بمناولتها الأولى، وتوّاقةً للترحيب بيسوع في قلبها. وقد رفض كاهن الرعيّة، بادئ الأمر، الاستجابة لرغبتها هذه، نظرًا لصغر سنّها. غير أنّ كاهنًا قدّيسًا هو الأب كروز (CRUZ) استجوبها، وأُعجب بوعيها وإدراكها، وبصدق عواطفها، فأخذ على عاتقه السماح لها بالتناول، في تلك السنّ المبكّرة. وقد استمع لاعترافها، وقال لها، في إثره: «يا ابنتي، إنّ نفسك هي هيكلٌ للروح القدس، فاحفظيها، دائمًا، طاهرةً، لكي يواصل عمله الإلهيّ فيها». واستوضحته عمّا يتعيّن عليها فعله في سبيل ذلك، فأجاب: «وأنتِ راكعةٌ أمام تمثال العذراء، اطلبي منها، في كثيرٍ من الثقة، أن تعنى بقلبك، فتُعدّه لتقبّل ابنها الحبيب بجدارةٍ، غدًا، وأن تحفظه له وحده، أبدًا». وتتابع لوسيّا روايتها فتقول:

«كان في الكنيسة أكثر من إيقونةٍ للسيّدة العذراء. ولكن،

بما أَنّ شقيقاتي قد أَلفنَ تزيين هيكل سيّدة الورديّة، فقد اعتدت الصلاة أَمام تمثالها. وقد سألتها، بكلّ ما أوتيتُ من حرارةٍ، أَن تحفظ قلبي المسكين للّه وحده. وبعد أَن كرّرتُ هذا الطلب مرّاتٍ عديدةٍ، وعيناي محدّقتان إِلى التمثال، انتابني انطباعٌ بأَنّ العذراء كانت تبتسم لي، وأَنّها، في نظرة عطفٍ، وإِشارة حبٍّ، كانت تستجيب لطلبي. وقد استطارني ذلك طربًا، وتعذّر عليّ التفوّه بكلمةٍ».

وتتابع لوسيّا روايتها لمناولتها الأولى، فتقول: «كان قلبي يدقّ بعنفٍ، خشيت معه أَن يطفر من صدري. ولكن ما إِن وضع الكاهن القربانة الإِلهيّة على شفتيّ حتّى غشى نفسي شعورٌ بسكينةٍ وسلامٍ يتعذّر وصفهما، ولكأنّ جوًّا فائق الطبيعة هيمن عليّ، بحيث غدا شعوري بحضور اللّه حسّيًّا، كما لو كنت أَراه وأَسمعه بحواسّي الجسديّة، فتوسّلته: «يا ربّ، اجعل منّي قدّيسةً، واحفظ قلبي طاهرًا أَبدًا، لك وحدك». وخُيّل إِليّ أَنّ اللّه قال، في أَعماق قلبي، هذه الكلمات، بوضوح: «إِنّ النعمة التي توهَبينها اليوم ستبقى حيّةً في نفسك، وستؤتي ثمار حياةٍ أَبديّةٍ».

لوسيّا وابنا عمّتها: فرنشيسكو وهياسنت

بلغت لوسيّا الثامنة، وتعيّن على أُختها كارولين أَن تستهلّ عملها في مهنة الخياطة، فحلّت، هي، محلّها في رعاية قطيع الأُسرة الصغير المؤلّف من بضعة خرافٍ ونعاجٍ. وقد فعلت ذلك، بادئ الأَمر، برفقة ثلاث فتياتٍ من القرية، كانت كلٌّ منهنّ مكلّفةً برعاية قطيعٍ صغيرٍ، أَيضًا، فكنّ يقصدنَ المراعي، ويُمضينَ نهارهنّ معًا، ويعُدنَ معًا إِلى القرية.

وشقّ على ابنَي عمّتها فرنشيسكو وهياسنت اللّذين أَلِفا قضاء أَيّامهما في اللعب معها، بعادها عنهما، فباتا يقبعان عند مدخل القرية، ينتظران، كلّ يومٍ، عودتها، إِلى أَن أَقنعا والديهما برعاية قطيع أُسرتهما معها. ومنذئذٍ انقطعت لوسيّا عن رفيقاتها السابقات، واقتصرت على رفقتهما.

والدا فرنشيسكو وهياسنت: مانويل پيدرو مارتو وأولمپيا يسوع

فعلاوةً على أَواصر القربى التي كانت تربط لوسيّا بابنَي عمّتها، كانت تجمعها بهما ميولٌ مشتركة.

فهياسنت قد تميّزت، منذ طفولتها، برقّةٍ وعذوبةٍ كانتا تجعلانها محبَّبةً، وعشرتها مرغوبة. مع كرّ الأَيّام، نشأت لديها حساسيّةٌ مفرطةٌ، فغدت متقلّبة الطباع، مشاكسةً بعض الشيء، ونزقةً. بيد أَنّ النَزَق والحساسيّة المفرطة لديها كانا الوجه الآخر لطبعٍ سخيٍّ، مندفعٍ.

كانت تملك قلبًا من ذهبٍ، يتّسع للصداقة الوفيّة، وللمودّة العميقة الجذور، وخاصّةً لحبّ يسوع. وفي هذا السياق، تروي لوسيّا أَنّ هياسنت سألتها، يومًا، عن سبب تصوير يسوع مصلوبًا، فروت لها قصّة الآلام التي كانت قد حفظتها بكلّ حذافيرها، فبلغ بها التأثّر كلّ مبلغٍ، وسكبت فيضًا من الدموع، وهتفت: «مسكينٌ ربّنا! عليّ ألاّ أَرتكب، أَبدًا، خطيئةً، فإِنّي آبى أَن أُسبّب له مزيدًا من الآلام!».

وكانت هياسنت كَلِفةً بالصدق، تمقت كلّ ضروب الكذب، حتّى تلك التي تبدو ضئيلةً وبريئةً.

أَمّا عن فرنشيسكو، فتقول لوسيّا: «لم يكن يشبه شقيقته هياسنت إلاّ بملامح الوجه، وبممارسة الفضيلة. لم يكن، نظيرها، نزقًا، حادّ الطباع، بل كان مسالمًا، متسامحًا... كان رقيقًا، متواضعًا، دائم البشاشة، على توافقٍ مع الجميع، حتّى إن كلّفه ذلك تضحياتٍ. فإن سلبه أَحدٌ متاعًا يخصّه، كان يقول له: «احتفظ به، فسواءٌ لديّ إن كان بحوزتي أَو بحوزتك». غير أَنّ تسامحه لم يكن نتيجة وهنٍ أَو خَوَرٍ، أَو ضعف شخصيّةٍ، فقد شهد والده أَنّه كان قويًّا، لعوبًا، يدبّر المقالب لإخوته، وكان جسورًا لا يجد الخوفُ إلى قلبه سبيلاً، وكان يمتلك مهارةً يدويّةً مدهشةً.

ومع ذلك كان ينزع إلى العزلة والتأمّل، عاشقًا للطبيعة وللحيوانات، كَلِفًا بالموسيقى والمزمار.

وكان فرنشيسكو وهياسنت يؤثران رفقة لوسيّا على رفقة أَيٍّ كان. وكانا ينفقان معظم وقتهما معها، أَو في منزل ذويها، ولا يطيقان البعاد عنها. ومذ ظفرا بموافقة والديهما على رعاية قطيع الأُسرة، كانا على موعدٍ معها، كلّ صباحٍ، وبعد أَن

يتّفق ثلاثتهم على اختيار موقع الكلأ، كانوا ينطلقون ضاجّين فرحًا.

وفيما كان فرنشيسكو ينتحي جانبًا، كي يعزف بمزماره، كان أَحَبَّ عبثٍ على قلب لوسيّا وهياسنت اعتلاءُ صخرةٍ على رأس تلّةٍ، والاستماع إلى صدى هتافهما. وكان أعذب صدًى لهما هو صدى اسم «مريم»، فكانتا تتلوان السلام الملائكيّ، كلمةً كلمةً، بصوتٍ مرتفعٍ، وتنتظران رجع صداها، فتهتفان بالكلمة التالية.

وإلى جانب ذلك، كانتا كَلِفتين بالرقص، فحسبهما سماع عزف رعاةٍ آخرين حتّى تنطلقا تتوثّبان، وتدوران على نفسيهما. وهكذا كانت تكرّ نهارات الرعاة الثلاثة سريعةً. غير أَنّ سهر أُسرتهم عليهم كان يضمن الحفاظ على طهر نفوسهم، التي ظلّت مضمَّخةً بحضور اللّه، وبكلّ ما يشير إليه. فقد كانوا يرون في الشمس قنديل العذراء، وفي النجوم مصابيح الملائكة، التي كان يطيب لفرنشيسكو عدّها. لا شيء كان يفتنه أكثر من منظر غياب الشمس، ولا شيء

يسعده أكثر من إطعام العصافير التي كانت تتقاطر إلى حيث ينثر لها كسرات خبزه.

وغالبًا ما كان الرعاة الصغار الثلاثة يشتركون في ترنيم الأناشيد التي كانت كلماتها المتلائمة مع عواطفهم النقيّة تُشرع نفوسهم على روائع الإيمان الصافية. ومن الأناشيد الأثيرة على نفوسهم هذا الذي يقول:

«أُحبّ اللّه في السماء، وأُحبّه على الأرض، أيضًا؛
أُحبّه في الحقول والزهور، وأُحبّ الأغنام في البرّيّة،
نحن رعاةٌ فقراء، ونصلّي دائمًا لمريم العذراء».

الملاك السابق

سبق لنا أَن ذكرنا أَنّ لوسيّا كُلّفت برعاية قطيع الأُسرة في ربيع عام ١٩١٥، وكانت قد بلغت، آنذاك، الثامنة من عمرها. وقد اختارت، لمشاركتها الاضطلاع بهذه المهمّة، ثلاث رفيقاتٍ من القرية تميَّزنَ بالجدّ والتقوى. وكانت، هي، أَكثرهنّ ذكاءً، وأَقواهنَّ شخصيّةً. فباتت لهنّ القائدة والمعلّمة. فكانت تلقّنهنّ ترنيم الأَناشيد، وتشاركهنّ الرقص والتسلية، فلا يشعرنَ بكرّ ساعات النهار، ويذهلنَ، أَحيانًا، عن تناول الطعام.

في هذا الجوّ الحافل بالبراءة، شرعت تتفتّح أَمام عيون تلك الفتيات نوافذ السماء. وقد روت لوسيّا أَنّها، في يومٍ من منتصف عام ١٩١٥، كانت ورفيقاتها قد اقتدنَ ماشيتهنّ إِلى تلّة «كابيصو» التي ينبسط، عند أَقدامها، سهلٌ نبتت فيه

أَشجار الزيتون، والسنديان، والصنوبر، والبلّوط. وعقب تناولهنّ الغداء، دعت لوسيّا رفيقاتها إلى مشاركتها تلاوة المسبحة، فاستجبنَ بسرور. وما إن شرعنَ يصلّينَ حتّى شاهدنَ ما يشبه تمثال ثلجٍ معلّقًا في الجوّ، فوق الأَشجار، وكانت أَشعّة الشمس تظهره شفّافًا. كان أَشدّ بياضًا من الثلج، وذا هيئةٍ بشريّةٍ. تساءلنَ، هلعاتٍ، عمّا يكون، وتابعنَ صلاتهنَّ، وعيونهنّ محدّقاتٌ إلى ذلك الطيف الذي توارى حالما فرغنَ من تلاوة المسبحة.

أَذاعت رفيقات لوسيّا نبأ ذلك الظهور في القرية. ولمّا استوضحتها أُمّها عنه، أَجابت، معبّرةً عن إبهام الرؤيا: «إنّه يحاكي شخصًا متدثّرًا بشرشف، لا تُرى يداه ولا عيناه». واستخلصت والدتها من ذلك الوصف، بازدراءٍ: «هذه ترّهات أَولاد!».

وتكرّر الظهور كرّةً ثانيةً، فثالثةً. وفيما التزمت لوسيّا الصمت، مضت رفيقاتها يُشعنَ في كلّ أَرجاء القرية، قصص ما رأينَ، وغدا كثيرون يسخرون من الفتيات الرائيات.

الرؤاة الثلاثة: من اليسار إلى اليمين عام ١٩١٧:
لوسيا (١٠ سنوات)، فرنشيسكو (٩ سنوات)، هياسنت (٧ سنوات)

وإنّما كانت تلك الظهورات تمهيدًا لما ستراه لوسيّا وابنا عمّتها، لاحقًا.

فقد قرّر ثلاثيّ لوسيّا وهياسنت وفرنشيسكو، إثر تأليفه، الرعاية في ممتلكات الأُسرتَيْن، بمنأًى عن الرعاة الآخرين. وعقبت ذلك ثلاث ظهوراتٍ ملائكيّةٍ أُخرى، في ربيع وصيف وخريف عام ١٩١٦. كانت لوسيّا، آنذاك، في التاسعة من عمرها، وفرنشيسكو في الثامنة، في حين لم تكن هياسنت قد تخطّت الستّ سنوات.

ربيع عام ١٩١٦: «أَنا ملاك السلام»

كان الرعاة الثلاثة الصغار قد اقتادوا سائمتهم إِلى سفح «كابيصو» الشرقيّ. وبغتةً أَخذ غيثٌ خفيفٌ يتهاطل، فبحثوا عن ملاذٍ يلجأون إِليه مع أَغنامهم، وعثروا على فجوةٍ وسط أَشجار الزيتون تطلّ على القرية. ومع أَنّ الهطول توقّف، والسماء انقشعت، قضوا باقي النهار في ذلك المكان، حيث تناولوا غداءهم، وتلوا المسبحة، وانصرفوا إِلى اللهو. وبغتةً هبّت ريحٌ شديدةٌ، عصفت بالأَشجار، مع أَنّ الجوّ كان ما برح مشمسًا ساكنًا. وروت لوسيّا ما حدث حينذاك، فقالت:

«شاهدنا، حينئذٍ، فوق أَشجار الزيتون، متّجهًا نحونا، الطيف عينه الذي أَتيت، آنفًا، على ذكره. لم يكن فرنشيسكو وهياسنت، قد شاهداه، من قبل، ولم أَكن قد حدّثتهما عنه. وكلّما اقترب ذلك الكائن منّا، كانت ملامحه

تتّضح لنا. فبدا شابًّا في الرابعة عشرة أَو الخامسة عشرة، أَشدّ بياضًا من الثلج، وكانت أَشعّة الشمس تظهره في مثل شفافيّة البلّور. كان رائع الجمال، أَمّا نحن، فكنّا مذهولين، لا نتفوّه بكلمة.

«ولمّا دنا منّا قال: «لا تخافوا! أَنا ملاك السلام. صلّوا معي!». وجثا على ركبتيه، وحنا جبينه حتّى لامس الحضيض. وحَمَلنا دافعٌ فائق الطبيعة على التمثّل به، وعلى ترديد الأَقوال التي كنّا نسمعه يتفوّه بها: «يا إِلهي، إِنّي أومن بك، وأَعبدك، وأَضع فيك رجائي، وأُحبّك. وأَلتمس عفوك عمّن لا يؤمنون بك، ولا يعبدونك، ولا يضعون فيك رجاءهم، ولا يحبّونك».

وبعد أَن كرّر هذه الصلاة ثلاثًا، نهض وقال لنا: «هكذا صلّوا، وسيستجيب قلبا يسوع ومريم لتوسّلاتكم». وتوارى، ولكنّ أَقواله انحفرت في أَعماقنا، فلم ننسَها قطّ، ومنذئذٍ، لطالما مكثنا ساجدين نردّد هذه الصلاة، حتّى نهوي تعبًا».

وقد علّقت لوسيّا، لاحقًا، على هذا الحدث بقولها: «كان

«كابيصو» حيث ظهر الملاك للرعاة الصغار، عام ١٩١٦

الجوّ العلويّ الذي يلفّنا من الكثافة بحيث كدنا، طويلاً، نفقد الشعور بوجودنا. وظللنا على الوضع الذي تركنا فيه الملاك، مردّدين الصلاة عينها. كان حضور الله يهيمن علينا بكثافةٍ وحميميّةٍ، فلا نجسر على تبادل كلمةٍ. وظلّ ذلك الشعور مستحوذاً علينا، في اليوم التالي، ولم يتبدّد ذلك الجوّ إلاّ ببطءٍ».

وجديرٌ بالتنويه أنّ فرنشيسكو لم يسمع، يومها، أقوال الملاك. وكان لابدّ من ترددها على مسامعه. وهكذا كان، أيضًا، في أثناء الظهورات اللاحقة. ولكن على غرار شقيقته، وابنة خاله، كانت النعمة الإلهيّة قد اخترقت نفسه، والشعور الحميم بحضور الله يلفّه. وكان الشعور بهذا الحضور يلقّن الرعاة الثلاثة التواضع السحيق، أي إدراك قداسة الله اللانهائيّة، وعدم الخليقة.

ظهورُ ملائكيٍّ ثانٍ، في صيف ١٩١٦

كان الصيف في أَوجه، والهجير قائظًا، وقد عاد الرعاة بماشيتهم ظهرًا، على أَن يرجعوا بها إِلى المراعي عصرًا، بعد القيلولة. وجريًا على عادتهم كانوا يلهون عند البئر المحفورة خلف منزل ذوي لوسيّا، وإِذ بالملاك عينه يتراءى، ويقول لهم:

– «ماذا تفعلون؟ صلّوا، أَكثروا من الصلاة! فقَلْبا يسوع ومريم يخصّانكم بمرامي رحمة. قدّموا، بلا انقطاع، للعليّ، صلواتٍ وتضحيات»..

وسألتْ لوسيّا: «كيف يتعيّن علينا أَن نصلّي ونضحّي؟».

– «بكلّ ما تسطيعون قدّموا للّه فعل تكفيرٍ عن الخطايا التي يُهان بها، وفعل توسّلٍ من أَجل ارتداد الخطأَة». بهذه الوسيلة

البئر، خلف منزل ذوي لوسيّا

ستجلبون السلام لوطنكم. أَنا ملاك وطنكم الحارس، ملاك البرتغال. تقبّلوا، على نحوٍ خاصٍّ، واحتملوا الآلام التي سيمتحنكم بها الربّ».

قالت لوسيّا لاحقًا: «أَقوال الملاك هذه انحفرت في ذهننا مثل نورٍ جعلنا ندرك من هو الله، وكم هو يحبّنا، وكم يبتغي أَن نحبّه، وجعلنا ندرك، أَيضًا، قيمة التضحية، وكم هي تروق له، وكيف، بفضلها، يعيد الخطأة إِلى دروب التوبة».

الظهور الملائكيّ الثالث في كابيصو، خريف عام ١٩١٦

عقب تناولهم الغداء، قرّر الرعاة الثلاثة الصلاة في المغارة، حيث حدث ظهور الملاك الأوّل، في ربيع ١٩١٦. وما انتهوا إليها حتّى ركعوا، وعفّروا جبينهم بالتراب، وأَخذوا يردّدون الصلاة التي كان الملاك، قد لقّنهم إيّاها: «يا إلهي، إنّي أومن بك، وأعبدك، وأضع فيك رجائي، وأُحبّك...»

وبغتةً التمع، فوقهم، نورٌ مجهولٌ، ورفعوا أَبصارهم، فإذا بالملاك عينه، حاملاً في يده اليسرى كأسًا تعلوها قربانةٌ تنثال منها قطرات دمٍ في الكأس. وترك الملاك الكأس والقربانة معلّقتين في الهواء، وجاء فسجد بالقرب من الرعاة، كرّر، ثلاثًا، الصلاة التالية:

«أَيّها الثالوث فائق القداسة، الآب، والابن، والروح القدس، إِنّي أَعبدك بعمقٍ، وأُقدّم لك جسد يسوع الثمين، بدمه، ونفسه، وأُلوهته، الحاضر في هياكل الأَرض جميعها، تكفيرًا عن الإِهانات، وأَفعال التدنيس، واللامبالاة التي يهان بها. وبحقّ استحقاقات قلبه الأَقدس، وقلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ، أَلتمس منك ارتداد الخطأة البائسين».

وتتابع لوسيّا الرواية فتقول:

«ثمّ نهض، وأَخذ بيده، ثانيةً، الكأس والقربانة، فناولني القربانة، وقسّم محتوى الكأس بين فرنشيسكو وهياسنت، وهو يقول:

«كلوا واشربوا جسد يسوع المسيح ودمه المهانين إِهانةً مريعةً، من جرّاء عقوق البشر، ونكرانهم الجميل. كفّروا عن خطاياهم، وعزّوا إِلهكم».

ثمّ سجد، حتّى لامس جبينه الحضيض، وكرّر معنا، ثلاثًا، صلاته: «أَيّها الثالوث فائق القداسة...» وتوارى.

ومنذئذٍ، دأب فرنشيسكو وهياسنت على فرض تضحياتٍ

قاسيةٍ على ذاتيهما تكفيرًا عن الخطايا التي تهين قلبَي يسوع ومريم. وتعلّمت لوسيّا احتمال المِحَن التي حلّت بذويها، للغاية نفسها. فإثر زواج اثنتين من أَخواتها، خلا المنزل من حيويّته وبهجته، وتردّى والدها إِلى الإِدمان على معاقرة الخمرة، وضاقت الحال بالأُسرة، فاضطرّت إِلى بيع معظم حقولها. واستُدعي إِلى الخدمة العسكريّة أَخوها الوحيد، الذي كان يُعنى باستثمار ما تبقّى للأُسرة من أَراضٍ وحقولٍ. وفاض قلب والدتها بالمرارة، فباتت تبلّل، كلّ مساءٍ، عشاءها بدموعٍ مدرارةٍ. وحينئذٍ كانت لوسيّا، لكيلا تضاعف أَحزان أُمّها، تفزع إِلى مثابة البئر، خلف المنزل، فتركع، وتمزج ماء البئر بدموعها. وغالبًا ما كان فرنشيسكو وهياسنت يجدانها هناك، فيركعان إِلى جانبها، ويشاركانها الهموم والدموع.

الفصل الثاني

ظهورات العذراء الستّة:
من ١٣ أَيّار حتّى ١٣ تشرين الأَوّل ١٩١٧

الظهور الأَوّل

في ربيع عام ١٩١٧، كانت أُسرة «دوس سانتوس» قد استعادت بعض بهجتها. وكانت لوسيّا سعيدةً برعاية قطيعها برفقة ابنَي عمّتها.

يوم الأَحد الواقع في ١٣ أَيّار كان يومًا مشرقًا. وبعد أَن حضر الرعاة الثلاثة الصغار قدّاسًا صباحيًّا باكرًا، اقتادوا ماشيتهم للرعاية في أَحد حقول ذوي لوسيّا، يدعى «كوڤا دا إِيريا». وكانوا يتمهّلون في سيرهم كي يوفّروا للماشية فرصة الرعاية في الأَراضي الجبليّة التي كانوا يجتازونها، فلم يبلغوا غايتهم إِلاّ عند الظهيرة. فتناولوا غداءهم، وتلوا المسبحة، ودفعوا الأَغنام إِلى التلال، حيث الكلأ أَوفر، وانصرفوا، هم، إِلى أَلعابهم. وفيما كانوا عاكفين على بناء جدارٍ حول علّيقةٍ، ولكأَنّهم كانوا يرمزون، على غير وعيٍ منهم، إِلى

المزار الفخم الذي سيشاد بعد سنواتٍ، في ذلك المكان عينه، تكريمًا لظهور أمّ الله فيه، ومض برقٌ، بغتةً، وخُيّل إلى لوسيّا أنّ ذلك البرق ينذر بعاصفةٍ قادمةٍ، فأقنعت رفيقيها بالعودة إلى البيت. وعندما بلغوا منتصف السفح، ومض برقٌ آخر، وشاهدوا، فوق شجرة بلّوطٍ، «سيّدةً متّشحةً بالبياض، أشدّ تألّقًا من الشمس، تشعّ نورًا أصفى وأكثف من الكريستال الذي تخترقه أشعّة شمسٍ ساطعةٌ». وتروي لوسيّا: «حيال هذا الظهور توقّفنا مذهولين. كنّا على قربٍ وثيقٍ من السيّدة، لا يفصلنا عنها أكثر من نحو مترٍ ونصف المتر، بحيث كان النور الذي يحيق بها، أو بالحريّ المنبعث منها، يلفّنا. حينئذٍ، بادرتنا السيّدة بالقول:

– «**لا تخافوا، فأنا لا أُريد بكم سوءًا**». فسألْتُها:

– «من أين أنتِ قادمةٌ؟».

– «**أنا من السماء**».

– «وما الذي تبتغينه منّا سعادتك؟».

– «**جئت كي أطلب منكم المجيء إلى هنا، على مدى**

«كوڤا دا إيريا»،
موقع الظهورات الذي تحوّل إلى كاتدرائيّة فاطمة

ستّة أَشهرٍ متتاليةٍ، في الثالث عشر من كلّ شهرٍ، وفي مثل هذا الوقت. بعدئذٍ، سأُفصح لكم عن هويّتي، وعن مبتغاي، ثمّ سأَعود مرَّةً سابعةً».

– «وهل سأَرحل، أَنا أَيضًا، إِلى السماء؟».

– «**أَجل ستأتين إِليها**».

– «وهياسنت؟».

– «**أَيضًا**».

– «وفرنشيسكو؟».

– «**أَيضًا، ولكن عليه الإِكثار من تلاوة المسبحة**».

في هذه الأَثناء، كان فرنشيسكو يسمع ابنة خاله تخاطب كائنًا لا يراه، ويسمع أَسئلتها، ولكنّه لا يسمع الأَجوبة عليها. ولمّا ذُكر اسمه استوضح لوسيّا عن حقيقة الأَمر، فسألت لوسيّا السيّدة:

– «علامَ لا يراك فرنشيسكو؟».

فرمقت السيّدة الفتى بعطفٍ ورقّةٍ، وردّت:

– «**بلّغيه أن يتلو المسبحة باطّرادٍ، فيراني، هو أيضًا**»

وبلّغت لوسيّا فرنشيسكو رغبة العذراء، فضجّ فرحًا، وهتف: «يا سيّدتنا العذراء، سأتلو من المسابح بقدر ما ترغبين». وفي الحال، شرع يصلّي. وما كاد يفرغ من تلاوة «السلام» السابع حتّى انقشعت الغمامة عن أبصاره، وافتتن بمظهر السيّدة السماويّة. ومنذئذٍ غدا ينعم برؤية السيّدة، في كلّ ظهورٍ، ولكن لا يسمع صوتها.

أمّا شقيقته هياسنت، فكانت لا تني تردّد: «يا لجمال هذه السيّدة!». ولكنّها لم تجرؤ على تبادل كلمةٍ واحدةٍ معها، وظلّ الحوار محصورًا بين العذراء ولوسيّا.

واستوضحت لوسيّا عن مصير فتاتين، توفّيتا حديثًا، وكانتا تتردّدان إلى منزل ذويها كي تتعلّما الحياكة مع شقيقتها الكبرى، فأعلمتها العذراء أنّ إحداهما قد باتت من سكّان السماء، في حين أنّ الأُخرى ستمكث طويلاً في المطهر.

حينئذٍ سألتها العذراء:

– «هل ترضون تقديم ذواتكم للّٰه، وأَن تتحمّلوا كلّ الآلام التي يرى امتحانكم بها، تكفيرًا عن الخطايا التي يُهان بها، والتماسًا لارتداد الخطأة؟».

– «أَجل نرضى».

– «ستعانون، إذن، آلامًا كثيرةً، ولكنّ نعمة اللّٰه ستكون لكم سندًا وعزاءً».

وتروي لوسيّا ما حدث حينذاك، فتقول: «عندما تلفّظت السيّدة بعبارة «نعمة اللّٰه»، بسطت يديها، للمرَّة الأولى، وأَنفذت إِلينا، وكأنّه انعكاسٌ نابعٌ منها، نورًا فائق الكثافة، توغّل إِلى صميم كياننا، مخترقًا قلبنا حتّى أَعماق نفوسنا، وجعلنا نرى ذواتنا في اللّٰه – وكان اللّٰه هو هذا النور – بوضوحٍ أَشدّ ممّا قد نرى ذواتنا في أَفضل مرآةٍ. وحينئذٍ، بدافعٍ داخليٍّ أُوتيناه، هَوَيْنا رُكّعًا، وتلونا، في سرّنا: «أَيّها الثالوث فائق القداسة، أَعبدك. إِلهي، إِلهي، أُحبّك في سرّ قربانك الأَقدس».

وبعد لحظاتٍ، استأنفت العذراء القول: «اتلوا المسبحة، كلّ يومٍ، كي تنالوا سلام العالم، وانتهاء الحرب».

ثمّ أَخذت السيّدة ترتفع، على مهلٍ، باتّجاه المشرق، إلى أَن غابت، كلّيّةً، في أَمداء السماء الشاسعة. ولكأنّ النور المحيق بها، كان يشقّ لها، بين الكواكب، دربًا، ما جعلنا نقول، أَحيانًا، إنّنا شهدنا انفتاح السماء».

هذا الظهور الأَوّل دام نحو عشر دقائق. وفي تعليقٍ لها على ما اكتنفه، صرّحت لوسيّا، لاحقًا:

«..... الخوف الذي ساورنا لم يكن، بالتحديد، خوفًا من العذراء، بل خوفًا من عاصفةٍ ظنّاها منذرةً، وشيكةً، وابتغينا تلافيها بالفرار. إنّ ظهورات العذراء لا توحي بأَيّ خوفٍ أَو خشيةٍ، بل توحي بالدهشة...» وقد أَكّدت أَنّ ظهور العذراء قد خلّف في نفسها ونفسَيْ رفيقَيْها سلامًا وفرحًا، أَكثر ممّا خلّف ظهور الملاك من قبل.

«البروق التي شاهدناها لم تكن بروقًا بالمعنى الرائج للكلمة، بل كانت انعكاس النور الذي كان يدنو منّا. ولذلك

كنّا نقول، أَحيانًا، كلّما رأينا نورًا، أَنّنا نرى العذراء قادمةً. ولكنّنا في الواقع، لم نكن نرى العذراء، وسط هذا النور، إلاّ عندما كانت تستقرّ فوق شجرة البلّوط...».

أَمّا في وصف العذراء، فقد أَفادت:

«لم يكن يبدو عليها أَنّها تخطّت الثمانية عشرة من السنين. ثوبها كان في مثل نصاعة بياض الثلج، وكذلك كان غطاؤها المطرّز بالذهب، الذي كان يغطّي هامتها، والجزء الأَكبر من جسمها. قسمات محيّاها كانت تتّسم بنبلٍ منقطع النظير، وبملامح إلهيّةٍ فائقة الطبيعة. وجهها كان يعبّر عن السجوّ والوقار، وتظهر عليه مسحة حزنٍ رقيقةٌ. من يديها المضمومتين عند مستوى صدرها، كانت تتدلّى مسبحةٌ جميلةٌ منتهيةٌ بصليبٍ، حبّاتها البيضاء تحاكي اللآلئ. كلّ كيانها المحاط بروعةٍ أَشدّ تألّقًا من الشمس، كان يشعّ بحُزَمٍ من نورٍ. جمال محيّاها يستعصي على الوصف، ويفوق، بلا قياسٍ، أَيّ جمالٍ بشريٍّ».

ويُلاحظ أَنّ لوسيّا، في وصفها للعذراء، تأتي، باطّرادٍ،

على ذكر النور، نورٍ يتجلّى تحت كلّ لونٍ، فهو، تارّةً، أَبيض أَشدّ نصاعةً من الثلج، وتارّةً أُخرى شديد التألّق بحيث يبدو ذهبًا أَو شمسًا. إِنّه نور المجد الإِلهيّ.

أَمّا عن صوتها فتصفه بالرقّة والعذوبة.

وخليقٌ بالتنويه أَنّ فرنشيسكو كان أَكثر الرؤاة الثلاثة تأثّرًا بالحزن الذي يُلحقه الخطأة بقلب يسوع. ولطالما استدرّ ذلك التأثّر دموعه الحرّى. فغالبًا ما باغته والده، ليلاً، وهو ينتحب، تعاطفًا مع أَسى يسوع. وتروي لوسيّا، في هذا السياق: «بات فرنشيسكو ينأى عنّا... وعندما كنت أُناديه وأَسأله عمّا يفعل كان يرفع ذراعيه، كي أَرى المسبحة في يده. وعندما كنت أَدعوه لمشاركتنا اللعب، على أَن يصلّي، لاحقًا معنا، كان يجيب: «سأُصلّي، أَيضًا، معكما، في ما بعد. أَلا تذكرين قول السيّدة العذراء أَنّ عليّ الاستبحار في تلاوة المسبحة؟».

في أَعقاب ذلك الظهور الأَوّل، تعاهد الرؤاة الثلاثة على التسلّح بالكتمان، وعلى إِبقاء ما حدث سرًّا بينهم. وفي حين

اعتصمت لوسيّا بالحيطة والصمت، لم تقوَ هياسنت الصغيرة على الالتزام بوعدها. فأَطلعت أُمّها، فورَ عودتها إِلى البيت، على تفاصيل الظهور. ثمّ في أَثناء العشاء، روت لجميع أَفراد الأُسرة كلّ ما رأت وسمعت. وأَيّد فرنشيسكو روايتها. وفيما أَبدت أَخواتهما اهتمامًا بالأَمر، اكتفى إِخوتهما، وهم أَكبر سنًّا، بالتهكّم. أَمّا والدهما فكان واثقًا من براءة صغيريه، ومن بُعدهما عن الكذب، وكان موقنًا أَنّ ضآلة ثقافتهما، لم تكن تؤهّلهما لاختلاق أَقوالٍ تفوق مداركهما، فلم يداخله ريبٌ في صدق روايتهما.

وفي الغداة، كان النبأ قد ذاع في طول القرية وعرضها. وخشيت والدة لوسيّا على ابنتها، وعلى أُسرتها، من عواقب انتشار الخبر، ولا سيّما أَنّها كانت تعتقد، جازمةً، أَنّه محض كذبٍ واختلاقٍ، فباتت تمارس على ابنتها كلّ ضروب الضغوط، ولا تستثني ضربها بالمكنسة، وتهديدها باحتجازها في مكانٍ مظلمٍ، يحجب عنها، إِلى الأَبد، ضوء الشمس، لعلّها ترغمها على تكذيب كلّ ما شاع من ظهور العذراء لها ولابنَي عمّتها، وعلى إِعلان هذا التكذيب على الملأ. ولكنّ

الفتاة ظلّت معتصمةً بالصمت والصبر، مؤكّدةً صحّة ما حدث وواقعيّته.

وقد انضمّت أَخوات لوسيّا إِلى والدتهنّ في اتّهامها بالكذب والخداع، وفي احتقارها ونبذها من جرّاء ذلك، فغدت المسكينة تتساءل: «أَين ذهب العطف الذي كانت أُسرتي تحيطني به؟». ولم يكن لها من عزاءٍ سوى الدموع التي تسكبها بين يدي اللّه، وتقدمة آلامها تضحيةً وكفّارةً عن خطايا العالم.

ظهور العذراء الثاني: ١٣ حزيران ١٩١٧

في ذلك اليوم، كانت رعيّة القرية تحتفل بعيد شفيعها القدّيس أنطونيوس البادوانيّ. وإذ كان ذوو لوسيّا يعهدون شغَفَها بهذا العيد، تساءلوا هل ستتخلّى عن الاحتفال به، من أَجل الشخوص إلى «كوڤا دا إيريا»، بغية محاورة «السيّدة» المزعومة. غير أَنّ الأَمر، في ما يخصّ الرعاة الصغار، كان محسومًا، فهم كانوا قد وعدوا السيّدة بالحضور، ولا شيء كان كفيلاً بثنيهم عن الوفاء بالوعد.

ولذلك انطلقوا بأَغنامهم، منذ انبلاج الفجر، إلى منطقةٍ تدعى «ڤالينيوس» حيث الكلأ وفيرٌ، فنالت الماشية كفايتها سريعًا، وعادوا بها باكرًا إلى البيت، وتمكّنت لوسيّا من الشخوص إلى بلدة فاطمة حيث حضرت القدّاس، ثمّ خفّت، مع رفيقيها إلى «كوڤا دا إيريا». وعندما انتهوا إلى

موقع الظهورات، في نحو الساعة الحادية عشرة، كان بضع عشراتٍ من الأَشخاص قد سبقوهم إِليه، قادمين من الدساكر المجاورة. ولكن، من قرية الرعاة لم يوافِ سوى سيّدةٍ تدعى «ماريّا كاريرا»، راسخة الإِيمان، شجاعةٍ، لا تخشى تهمةً ولا ملامةً، وقد استشفّت، بحدْسها الثاقب، أَنّ حدثًا فائق الطبيعة، كان يجري هناك. واشترك الجميع بتلاوة المسبحة، بانتظار الإِشارة التي تُشعر بقدوم العذراء. ثمّ نهضت لوسيّا، ورتّبت وضع شالها وثيابها، وكأَنّها تهمّ بولوج كنيسةٍ، ثمّ تطلّعت نحو المشرق وهتفت: «هوذا الوميض... السيّدة العذراء قادمة». ذلك الوميض الذي شاهده الرعاة الصغار الثلاثة، لم يشهده أَحدٌ من الحضور، الذي بلغ عديده نحو خمسين شخصًا. غير أَنّ بعض الحاضرين رأوا أَغصان شجرة البلّوط تنحني، بعد أَن استقرّت عليها الزائرة السماويّة.

وتروي لوسيّا ما حدث في ذلك اليوم فتقول:

«سألتها: «ماذا تبتغي سعادتك منّي؟».

– «**أُريد أَن تحضروا إِلى هنا في الثالث عشر من الشهر**

القادم، وأَن تتلوا المسبحة كلّ يومٍ، وأَن تتعلّموا القراءة. لاحقًا سأُطلعكم على ما أَبتغي منكم».

«والتمستُ شفاء مريضٍ، فأَجابت السيّدة: «**إِن هو تاب، فسيظفر بالشفاء، في أَثناء السنة**».

«وأَضفتُ: «أَرغب في أَن تأخذينا إِلى السماء».

– «**أَجل، سأَمضي بهياسنت وفرنشيسكو إِليها، قريبًا. أَمّا أَنتِ، يا لوسيّا، فستمكثين هنا بعض الوقت، لأَنّ يسوع راغبٌ في استخدامك لجعل العالم يعرفني، ويحبّني، ولكي يرسّخ تكريم قلبي المنزّه من كلّ لوثةٍ. وإِنّي أُعد جميع الذين يتبنّون هذه الممارسة بالخلاص، وسيحبّ اللّه نفوسهم، كأَنّها أَزهارٌ أُزيّن بها عرشه**».

«وسأَلتها، مكتئبةً: «سأَبقى، إِذن، هنا، وحدي؟».

– «**كلاّ، يا ابنتي. هل يؤلمك ذلك كثيرًا؟ لا تقنطي، فلن أَتخلّى عنك أَبدًا، وسيكون قلبي الطاهر لك ملاذًا، والدرب الذي يفضي بك إِلى اللّه**».

«ولحظة تفوّهها بهذه الكلمات الأَخيرة، بسطت يديها، ونفحتنا، للمرَّة الثانية، انعكاس ذلك النور الجمّ، حيث رأينا ذواتنا غارقين في لجّة اللّه. وقد ظهر فرنشيسكو وهياسنت في حيّز النور الصاعد إِلى السماء. وأَنا ظهرتُ في حيّزه المنحدر على الأَرض.

«وكان، طيّ راحة السيّدة اليمنى، قلبٌ محاطٌ بأَشواك تنغرس فيه. وقد أَدركنا أَنّه قلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ، المهان بخطايا البشر، والمطالب بالتعويض...».

لبث الرعاة صامتين، محدّقين إِلى السماء، إِلى أَن نهضت لوسيّا، بعد برهةٍ، وأَعلنت: «انتهى الأَمر، لم نعدْ نراها. فقد رجعت إِلى السماء، وأُوصدت الأَبواب».

وعاد الحجّاج الخمسون الذين وافوا إِلى «كوفا دا إِيريا»، في ذلك اليوم، مفعمين فرحًا واندفاعًا، ونشروا النبأ المدهش في كلّ ناحيةٍ، وأَذاعوا وعد العذراء بالعودة في الثالث عشر من الشهر التالي، فتدافع القوم أُلوفًا إِلى ذلك الموقع، في

الثالث عشر من تمّوز، مع أَنّ ذلك الموعد كان يوافق أَوج موسم الحصاد.

وبانتظار حلول ذلك الموعد، عكف قومٌ آمنوا بأَنّ ذلك المكان قد قدّسته السماء، على تنظيفه من الحجارة والأَشواك، وتزيينه بالأَزاهير والقناديل، وعلى نصب ما يشبه قوسًا ومعبدًا بدائيًّا فيه.

وإِلى جانب هؤلاء، كثر المشكّكون المتهكّمون، والفضوليّون الذين حاصروا الأَطفال بأَسئلتهم الوقحة، كي ينتزعوا منهم الأَسرار التي ائتمنتهم عليها الزائرة السماوية، والتي كانوا حريصين على إِبقائها دفينةً طيّ نفوسهم.

وتنامى الأَمر إِلى كاهن الرعيّة، فطلب من والدة لوسيّا أَن تأتيه بها كي يستجوبها. وتوسّمت المرأة في ذلك الطلب مفترجًا، فقالت لابنتها: «اعترفي له بأَنّكِ كذبتِ في كلّ ما قلته وأَشعتِه، ولنطوِ الأَمر!»

واستجوب الكاهن لوسيّا برقّةٍ، ولكن بدقّةٍ مزعجةٍ. ولكنّه شكّك في أَن يكون الظهور سماويًّا. فلو هو كان كذلك لكان

الرؤاة أَمروا بتبليغ كلّ شيءٍ إلى معرّفهم، أَو إلى كاهن رعيّتهم، ولّمح بأَنّ الأَمر قد يكون، بجملته، دسًّا شيطانيًّا.

شقّ هذا الاستنتاج كثيرًا على لوسيّا، وداخلها شكٌّ بأن تكون الظهورات على نحو ما صوّرها الكاهن، فوطّنت العزم على الإِقلاع عن العودة إلى «كوڤا دا إيريا»، وباتت تتجنّب مشاهدة رفيقيها، ابنَي عمّتها، والتحدّث إليهما، فانتابهما حزنٌ هاصرٌ.

ولكن عندما أَفضت لوسيّا إلى فرنشيسكو بشكوكها، اعترض بحدّةٍ، مؤكّدًا استحالة أَن يكون كلّ ذلك الجمال، والسموّ، والنور، عملاً شيطانيًّا. ولّما بلّغته، عشيّة الثالث عشر من تمّوز، نيّتها عدم الشخوص إلى الموعد قضى ليلته باكيًا، متضرّعًا، ملتمسًا من العذراء حملها على العدول عن عزمها، فهي وحدها محاورة العذراء.

واستُجيبت صلاته.

الرؤاة الثلاثة، تموز ١٩١٧، بُعَيْدَ رؤيا جهنّم

الظهور الثالث: ١٣ تمّوز ١٩١٧

في ذلك اليوم طرأ تطوّرٌ خطيرٌ على موقف لوسيّا، روته كما يلي:

«عندما دنت الساعة التي كان عليّ، فيها، المضيّ إلى موعد العذراء، دفعتني، بغتةً، قوّةٌ غريبةٌ، لم أَجد إلى مقاومتها سبيلاً، فانطلقتُ، ومررتُ بمنزل عمَّتي، رغبةً في مقابلة هياسنت. وقد وجدتُها في غرفتها مع أَخيها فرنشيسكو، راكعَين أَمام السرير يبكيان. فسألتهما:

– «ألا تمضيان؟

– «لا نجسر على الذهاب ما لم ترافقينا!

– «إِذن أَنا ماضيةٌ».

فأَشرق وجههما فرحًا، وانطلقا معي».

ورافقتهم والدتا الأَطفال الثلاثة إلى «كوڤا دا إيريا»، حيث كان قد احتشد ثلاثة آلافٍ إلى أَربعة آلاف شخصٍ. ركعت لوسيّا، وشرعت بتلاوة المسبحة بصوتٍ عالٍ، يشاركها الجمع المحتشد بتلاوتها.

وبغتةً نهضت لوسيّا، وكأنّ قوّةً مجهولةً أَنهضتها، ورنت صوب المشرق، وهتفت: «أَغلقوا مظلاّتكم! فها إنّ العذراء قادمةٌ. وكان الحاضرون قد استعانوا بالمظلاّت على اتّقاء هجير الظهيرة القائظ.

واعترى الرؤاة انخطافٌ، ولاحظ الحضور، في أَثنائه، أَنّ نور الشمس خبا، ولكأنّ كسوفًا قد حدث، وهبّ نسيمٌ رقيقٌ، وفترت حرارة الجوّ الذي اكتسى لونًا أَصفر، ذهبيًّا، وأَحاقت بالرؤاة الصغار غمامةٌ بيضاء، رائعة المنظر. وعندما انتهت لوسيّا من مخاطبة العذراء، سُمع صوتٌ هائلٌ، كأَنّه هزيم رعدٍ، ارتجّت معه الأَرض. ونهضت لوسيّا، مشيرةً إلى السماء: «لقد مضت». ثمّ أَردفت، بعد لحظات: «لم نعد نراها».

وقد اعترفت الأُخت لوسيّا، لاحقًا: «إنّ الشكوك التي حاصرتني وأَرّقتني، بين الثالث عشر من حزيران، والثالث عشر من تمّوز، قد تبدّدت في هذا الظهور الثالث. وبفضل الله، انجلت غيوم نفسي، واستعدتُ السلام».

وكان قد جرى بينهما وبين الزائرة السماويّة الحوار التالي:

– «ماذا تبتغي سعادتك منّي؟

– «**أريد أن تأتوا إلى هنا، في الثالث عشر من الشهر القادم، وأن تستمرّوا في تلاوة المسبحة، كلّ يومٍ، إكرامًا لسيّدة الورديّة، والتماسًا لسلام العالم، ولانتهاء الحرب، فهي، وحدها، قادرةٌ على غوثكم**».

– «أَودّ أَن أَسألك الإفصاح عن هويّتك، وإجراء معجزةٍ كفيلةٍ بجعل الجميع يؤمنون أَنّك تظهرين لنا.

– «**استمرّوا في المجي إلى هنا كلّ شهرٍ، وفي تشرين الأَوّل، سأُفصح عن هويّتي، وعن مبتغاي؛ وسأُجري معجزةً يشهدها الجميع كي يؤمنوا**».

وبعد أَن التمست لوسيّا بعض النعم، وأَكّدت لها العذراء ضرورة تلاوة المسبحة من أَجل الحصول عليها، أَنهت الأُمّ السماويّة حوارها بقولها:

– «**ضحّوا من أَجل توبة الخطأة. وردّدوا، غالبًا، ولا سيّما عندما تقومون بتضحيةٍ: «يا يسوع، إِنّي أَفعل هذا حبًّا بك، من أَجل ارتداد الخطأة وتوبتهم، وتكفيرًا عن الخطايا المرتكبة بحقّ قلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ**».

«وبعد أَن تلفّظت السيّدة بهذه الأَقوال، بسطت يدَيْها، كما كانت قد فعلت في الظهورين السابقين، وبدا أَنّ انعكاس النور يخترق الأَرض. وشهدنا ما يشبه أَوقيانسًا من النار، وقد غرق في لجّته أَبالسةٌ ونفوسٌ مدانةٌ. تلك النفوس بدت وكأَنّها جمراتٌ شفّافةٌ، سوداء أَو نحاسيّة اللون، ذات أَشكالٍ بشريّةٍ، كانت تعوم داخل ذلك الحريق، يعلو بها اللهب الذي يتصاعد من تلقاء نفسه، مطلقًا غيومًا من الدخان. وكانت تتساقط من كلّ صوبٍ، كالشرار الذي يتساقط من الحرائق الكبرى، بلا ثقلٍ ولا توازنٍ، وسط الصيحات، وأَنّات الأَلم

والقنوط المريعة... وكانت الأبالسة تتميّز عن نفوس المدانين بأشكالها المخيفة المنفّرة، أشكال حيواناتٍ مجهولةٍ مريعة المنظر، ولكنّها شفّافةٌ مثل فحمٍ متّقدٍ».

وقد أوضحت الأُخت لوسيّا في مكانٍ آخر: «هذه الرؤيا لم تدم سوى لحظاتٍ، بفضل أُمّنا السماويّة، التي كانت، في أثناء ظهورها الأوّل، قد وعدتنا بأخذنا إلى السماء، ولولا ذلك، لكنّا متنا خوفًا ورعدةً».

«ارتعنا، فرفعنا أنظار استغاثةٍ إلى سيّدتنا التي قالت، بنبرةٍ امتزج فيها العطف والحزن: «**ها قد شاهدتم جهنّم التي تنتهي إليها نفوس الخطأة البائسين. من أجل إنقاذها، يريد اللّه ترسيخ تكريم العالم لقلبي الطاهر. فإن تحقّق ما سأقوله لكم، ستظفر نفوسٌ كثيرةٌ بالخلاص، وسيستتبّ السلام. إنّ الحرب مشرفةٌ على نهايتها. ولكن، إن لم يكفّ العالم عن إهانة اللّه، فستنشب حربٌ أُخرى أدهى فداحةً، في عهد البابا بيّوس الحادي عشر. عندما ستشهدون ليلاً يضيئه نورٌ مجهولٌ، فاعلموا أنّ تلك هي**

الإشارة الكبرى التي يعني بها الله أنّه سيعاقب العالم عن جرائمه، بواسطة الحرب، والمجاعة، والاضطهادات التي ستنال من الكنيسة ومن الأب الأقدس.

«ولكي أحول دون هذه الكوارث سآتي طالبةً تكريس روسيّا لقلبي الطاهر، والمناولة التكفيريّة في أيّام السبت الأوّل من كلّ شهر. وإن استجيب طلبي، ستؤوب روسيّا إلى الله، وسيسود السلام. وإلاّ فستنشر روسيّا أضاليلها عبر العالم، مسبّبةً حروبًا واضطهاداتٍ تنال من الكنيسة. وسيُستشهد الأبرار، وسيعاني الأب الأقدس آلامًا كثيرةً، وستُباد أُممٌ عديدةٌ، ولكن في نهاية المطاف، سينتصر قلبي الطاهر، وسيكرّس لي الأب الأقدس روسيّا التي سترتدّ إلى الله، وسينعم العالم بحقبة سلامٍ....

«عند تلاوتكم المسبحة قولوا، في أعقاب كلّ سرٍّ: «يا يسوعي، اغفر لنا، وأنقذنا من نار جهنّم، واجتذب كلّ النفوس إلى السماء، ولا سيّما تلك التي هي في أشدّ حاجةٍ إلى الخلاص...».

وأَوصت السيّدة العذراء لوسيّا وهياسنت بكتمان أَمر ما شهدتا وسمعتا وأَلاّ تبوحا به إِلاّ لفرنشيسكو الذي لم يكن قد سمع أَقوال العذراء.

وعقب فترة صمتٍ، سألت لوسيّا العذراء:

– «هل تبتغين منّي أَمرًا آخر؟

– **لا لست أَبتغي منك شيئًا آخر، اليوم**».

وكما كان يحدث في كلّ ظهورٍ، أَخذت الزائرة السماويّة ترتفع باتّجاه الشرق، إِلى أَن توارت في أَمداء السماء الشاسعة.

كانت رؤيا جهنّم شديدة الوقع على نفوس الرؤاة الصغار، وبالغة الأَثر على مسيرة حياتهم، وقد لاحظ شهودٌ كثيرون الرعب الذي استحوذ عليهم عقب تلك الرؤيا؛ فقد شحب محيّا لوسيّا، وهتفت: «أَوّاه، يا سيّدتنا، أَوّاه، يا سيّدتنا!»

وقد أَكّدت لوسيّا أَن تلك الرؤيا أَرعبت هياسنت بحيث غدت كلّ التضحيات والكفّارات تبدو لها غير كافيةٍ من أَجل إِنقاذ بعض نفوسٍ من جهنّم.

وتضيف لوسيّا القول: «يأبى بعض الأَشخاص، وبينهم قومٌ وَرعون، أَتقياء، التحدّث عن جهنّم إلى الأَطفال، تجنّبًا لإرعابهم، في حين أَنّ اللّه نفسه لم يتردّد في إظهار جهنّم لثلاثة أَطفالٍ، لم تتخطَّ إحداهم السادسة من العمر، وهو عالمٌ بما سينالها من ذعرٍ».

فكرة جهنّم كانت تصيب هياسنت بالدوار، وكان أَشدّ ما يؤثّر فيها، فكرة أَبديّتها. فحتّى في غمرة لهوها، كانت تتساءل، بين حينٍ وحينٍ: «بعد مضيّ سنواتٍ كثيرةٍ، أَلن تنتهي جهنّم؟». وكانت لوسيّا تؤكّد لها ما تعلّمته، أَي إنّ جهنّم خالدة. وغالبًا ما كانت هياسنت تجلس أَرضًا، وتهتف: «يا لجهنّم!... كم أُشفق على النفوس التي تتردّى إليها!»، ثمّ تركع، وتضمّ يديها، وتتلو الصلاة التي لقّنتها العذراء: «يا يسوعي، اغفر لنا، وأَنقذنا من نار جهنّم، واجتذب إلى السماء جميع النفوس، ولا سيّما تلك التي تحتاج إليها أَشدّ احتياجٍ». وتظلّ، طويلاً، على هذه الحال، مردّدةً الصلاة عينها.

وذكر شهودٌ كُثُرٌ أَنّ لوسيّا كانت كلّما سُئلت عن رؤيتها لجهنّم، يكفهرّ محيّاها، وترتسم عليه مخايل الرعب. وغالبًا ما كانت هياسنت تقول لها: «أَنا شأشخص، عمّا قريبٍ، إِلى السماء. أَمّا أَنت، فبما أَنّك باقيةٌ هنا، أَخبري الناس كيف هي جهنّم، لعلّهم يُقلعون عن ارتكاب الآثام». كان يؤرّقها تعاظم عدد النفوس التي تتردّى إِلى جهنّم، وغالبًا ما كانت تقول: «ليتني أَستطيع أَن أُريهم جهنّم!».

إِنّ حبّ اللّه لمريم يفوق كلّ حبٍّ، إِنّه حبٌّ أَبديٌّ، حبّ إِيثارٍ منقطع النظير. واللّه يبتغي أَن يرى أُمّه ممجَّدةً، مكرَّمةً، محبوبةً، تخدمها كلّ الخلائق. من هذا الحبّ اللامحدود، تنبع رغبته المطلقة في جعلها الوسيطة الشاملة، وأَداة خلاص نفوسنا، ويريد أَن يكون تكريمها علنيًّا، راسخًا، ثابتًا، معترَفًا به.

وهكذا جاء تكريم قلب مريم كي يكمل تكريم قلب يسوع الأَقدس الذي كان قد شاع قبل ثلاثة قرون.

وليس هذا التكريم ملاذ الخطأة من الهلاك فحسب، بل هو، أيضًا، الطريق الأكيد إلى القداسة.

وقد قال الربّ للأُخت لوسيّا، في أحد إيحاءاته: «**إنّي أرغب، رغبةً حارّةً، في نشر تكريم قلب مريم الطاهر، لأنّ هذا القلب هو المغنطيس الذي يجتذب إليّ النفوس، وموئل النور الذي يبثّ في الأرض أشعّة نوري وحبّي، والنبع الذي لا ينضب، الذي يفيض على الدنيا ماء رحمتي الحيّ**».

ذاك هو مغزى أحد أسرار ظهورات فاطمة. وقد أثبت الرؤاة مفعوله الخلاصيّ، من خلال حياتهم البطوليّة.

لا جَرَمَ أنّ هذا الظهور الثالث هو من أجلّ ظهورات فاطمة شأنًا، ففيه أرت العذراء الأطفال جهنّم، وبلّغتهم رغبتها في تكريس روسيّا لها، تمهيدًا لارتدادها إلى الله، ورغبة يسوع في تعميم تكريم قلب أُمّه الطاهر، وبلّغت السرّ الثالث الذي ظلّ مكتومًا سنين طويلة، كما أنّها حدّدت، مسبّقًا، موعد المعجزة الكبرى التي ستجريها.

وجديرٌ بالتنويه أَنّ لوسيّا، آنذاك، لم تكن تدرك معنى روسيّا، ولا تفقه عن تلك البلاد شيئًا.

إِثر هذا الظهور الثالث تكثّف تدفّق الحجّاج إِلى «كوڤا دا إِيريا»، وكان كثيرون يقصدون منزلَيْ ذوي الرؤاة. وقد شقّ على والدة لوسيّا، التي كانت ما برحت مشكِّكةً بأَقوال ابنتها، تبيّنُ ما أَفضى إِليه كذبها المزعوم من تقاطر القوم المخدوعين، ولم تكن تنني تحضّها على إِعلان كذب ادّعاءاتها، على رؤوس الملأ، مستعينةً بكلّ وسائل الوعيد والعنف، وحتّى بضغوط كاهن الرعيّة. وكانت الآلام النفسيّة التي تكابدها الفتاة، بصبرٍ ورضًى، خير برهانٍ على مصداقيّتها.

غير أَنّ ضررًا فادحًا لحق بأُسرتها، من جرّاء احتشاد الحجّاج في رقعة الأَرض التي كانت الأُسرة تزرع فيها الحبوب والبقول الضروريّة لمؤونة المنزل، والتي ديست جميعها، وأُتلفت، والقليل الذي نجا من إِتلاف الحجّاج قضت عليه البهائم التي كانوا يستقلّونها في حجّهم. وقد

ضاعف ذلك من غيظ ماريّا روزا دوس سانتُس. وكانت أَخوات لوسيّا ينضممنَ إِلى أُمّهنّ في تأنيبها، ويقلنَ لها: «لا يحقّ لك أَن تأكلي سوى ما تستطيعين جنيه من أَرض «كوڤا دا إِيريا». فغدت لوسيّا المسكينة تخجل من تناول الخبز، بعد أَن كانت سبب حرمان الأُسرة من مواسمها الزراعيّة. غير أَنّها ما انفكّت تقدّم كلّ تلك الآلام والمضايقات تكفيرًا عن الخطأة، وتكريمًا وتعزيةً لقلبَي يسوع وأُمّه العذراء. ولا بدّ من الإِشارة إِلى أَنّ كلّ تلك المِحَن لم تنتقص شيئًا من حبّها الصادق لوالدتها ومن احترامها لها.

وقد زاد الوضعَ تعقيدًا دخولُ الصحافة الماسونيّة إِلى الحلبة، وتحاملها على الظهورات تهجّمًا، وتجريحًا، وتهكّمًا، ودعوتها السلطات المدنيّة إِلى وقف المهزلة قبل تفاقمها. واتّفق أَنّ مدير المنطقة كان ماسونيًّا مشهودًا له بعدائه المتهوّس للدين، ورجاله، وممثّليه، ولكلّ مظاهره. فاستُدعي والدا الرؤاة، مع أَبنائهم إِلى دار البلديّة في «ڤيلاّ نوڤا»». والد فرنشيسكو وهياسنت رفض استصحاب ولديه، بسبب صغر سنّهما، في حين قرّر والد لوسيّا استصحابها، كي تدافع عن

نفسها بنفسها، بحجّة جهله لتلك الأُمور. فأَركبها أَتانًا، سقطت عنها ثلاث مرّاتٍ، في أَثناء الطريق.

وجهد مدير المنطقة في إِكراه لوسيّا على إِفشاء السرّ الذي أَفضت به إِليها السيّدة العذراء، وعلى انتزاع وعدٍ بالإِقلاع عن الشخوص إِلى مكان الظهورات، بعد ذلك التاريخ. وحيال فشل جهوده كلّها، لم يضنّ بأَيّ ضربٍ من ضروب الوعيد، وأَفضت به القحة إِلى تهديدها بالقتل.

تلك المحنة كانت قاسيةً على لوسيّا، وضاعف قسوتها تبيّنُها أَنّ ذويها لم يبالوا بشأنها، كما بالى ذوو فرنشيسكو وهياسنت بولديهما. ولكنّها اغتنمت ذلك الواقع كي تقدّم تضحيةً، تكفيرًا عن الخطأة، وإِكرامًا للقلبين الأَقدسين. وفور عودتها إِلى المنزل هرعت إِلى موقع البئر، حيث وجدت رفيقيها، وقد قضيا، هناك، النهار كلّه، يبكيان ويصلّيان من أَجلها. وقد دهشا، وابتهجا لرؤيتها، بعد أَن أَخبرتهما أُختها الكبرى أَنّ السلطات الحكوميّة أَعدمتها.

١٣ آب: الطوبى لكم
إِذا اضطهدوكم من أَجل اسمي

حملة اضطهاد لوسيّا ورفيقيها كانت ما برحت في مستهلّها. فعشيّة الثالث عشر من آب خشي مدير المنطقة أَن يحدث الظهور الموعود، وأَن يمثّل انتصارًا آخر للرعاة الصغار، وللمشاعر الدينيّة الجماهيريّة، فحضر إِلى منزل الرؤاة في صباح ذلك اليوم، مدّعيًا الرغبة في إِيصالهم بسيّارته إِلى «كوڤا دا إِيريا»، كي يشهد ما يحدث هناك، بأُمّ عينيه. ولكنّ الرؤاة رفضوا عرضه، فهم قد أَلفوا المثول إِلى مكان الظهورات سيرًا على أقدامهم. حينئذٍ أَكرههم على استقلال سيّارته زاعمًا أَنّه سيكتفي باقتيادهم إِلى داركاهن الرعيّة في فاطمة، وواعدًا بإِعادتهم سريعًا، بعد طرح بعض أَسئلةٍ عليهم.

استجوب الكاهن لوسيّا، فجاءت أَجوبتها جريئةً، بطوليّةً، مضمَّخةً بحكمة السماء. وتظاهر مدير المنطقة بالاقتناع، ولكنّه أَكره الأَطفال على استقلال سيّارته، ثانيةً، بحجّة المضيّ بهم إِلى «كوڤا دا إِيريا»، لكيلا يفوّتوا موعدهم مع العذراء. بيد أَنّه، بعد أَن اجتاز مسافةً قصيرةً، غيّر اتّجاهه، ويمّم شطر مقرّه الرسميّ في «أوريم»، حيث أَخضع الرؤاة الصغار لسلسلةٍ مرهقةٍ من الاستجوابات، في محاولةٍ لانتزاع أَسرارهم عنوةً. وقد تمّت بعض الاستجوابات بحضور طبيبٍ، إِذ خطر لمدير المنطقة، إِثر فشله في تصوير قضيّة الظهورات على أَنّها عمليّة ابتزازٍ دبّرها الإِكليرُس، أَن يثبت أَنّ الرؤاة ضحايا هلوسةٍ ذهنيّةٍ هستيريّةٍ.

ولذلك احتجز الأَطفال في دار البلديّة طوال النهار والليل. ومع أَنّ إِخضاعهم لاختبارٍ طبّيٍ عقليٍّ كان قد ذاع أَمره، غير أَنّه لم يُسمع عن أَيّ تقريرٍ صدر بهذا الشأن. وكان غياب مثل هذا التقرير دليلاً دامغًا على خطل مزاعم الماسونيّين وأَزلامهم.

بعد ظهر اليوم التالي، ١٤ آب ١٩١٧، وبعد أَن آلت جميع الاستجوابات إِلى فشلٍ ذريعٍ، عمد مدير المنطقة إِلى إِرهاب الأَطفال، فأَودعهم في السجن العامّ، بين اللصوص والمجرمين، لعلّه ينتزع منهم إِقرارًا يبرزه للعلن.

في هذا الشأن تروي لوسيّا: «فيما حُشرنا في قاعةٍ تجمّع فيها عددٌ من اللصوص، كان أَشدّ ما شقّ على هياسنت غياب والديها. فكانت تقول لي، مذرّفةً الدموع: «لم يأتِ والدكِ، ولا والدنا لرؤيتنا. إِنّهم لا يبالون بنا». وكان فرنشيسكو يقول لها: «لا تبكي، يا أُخيّة، بل فلنقدّم ذلك ليسوع تكفيرًا عن الخطأة!». وحينئذٍ، كان يرفع عينيه ويديه نحو السماء، ويهتف: «يا يسوع، نقدّم كلّ هذا حبًّا بك، من أَجل ارتداد الخطأة». وكانت هياسنت تضيف: «ومن أَجل الأَب الأَقدس، وتكفيرًا عن الخطايا المرتكبة بحقّ قلب مريم الطاهر».

وكلّما بكت هياسنت، في السجن، وقد شدّها التوق إِلى والديها، كان أَخوها يسكّن روعها قائلاً: «إِن لم نرَ أُمّنا

نافذة سجن فيلا نوفا دي أوريم
حيث تمّ إرسال الرّعاة في ١٣ آب ١٩١٧

ثانيةً، فلنتدرّع بالصبر، ولنقدّم هذه التضحية من أَجل ارتداد الخطأة. إِنّما الأَدهى هو ألاّ تظهر لنا السيّدة العذراء ثانيةً. هذا ما سيكون أَثقل وقعًا ووطأةً عليّ! غير أَنّني سأقدّمه، أَيضًا، من أَجل توبة الخطأة وخلاصهم». ثمّ كان يسألني: «هل تظنّين أَنّ سيّدتنا العذراء لن تظهر لنا، بعدُ؟».

– «لستُ أَدري. ولكنّي أَظنّ أَنّها ستظهر».

– «كم أَنا توّاقٌ إِلى رؤيتها!».

في هذه الأَثناء، استُجوب الأَطفال، كلٌّ على حدةٍ، ثمّ أُعيدوا إِلى قاعة السجن، وقيل لهم «إِنّهم سيُلقَون، عمّا قريبٍ، في الزيت المغليّ، كي يُقلَوا فيه».

وتتابع لوسيّا روايتها: «ابتعدت هياسنت قليلاً نحو النافذة المطلّة على سوق البهائم. وخُيّل إِليّ، بادئ الأَمر، أَنّها كانت تتسلّى بالتفرّج على ما يجري في الخارج، ولكنّي ما لبثت أَن رأيتها تبكي، فأَدنيتها منّي، واستوضحتها عن سبب بكائها، فأَجابت: «لأَنّنا نموت قبل أَن نرى والدينا». وفيما

كانت الدموع تنثال على وجنتيها، أردفت: «أودّ، أقلّه، أن أرى أُمّي». فقلت:

– «أولا تودّين تقديم هذه التضحية من أجل ارتداد الخطأة؟».

– «بلى، بلى، أُريد ذلك!». وفي الحال تلفّظت بهذه التقدمة: «يا يسوع الحبيب، أُقدّم هذا حبًّا بك، ومن أجل ارتداد الخطأة، ومن أجل الأب الأقدس، وتكفيرًا عن الخطايا المرتكبة بحقّ قلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ».

وحاول السجناء الذين رأوا هذا المشهد مواساتنا قائلين: «بوحوا بالسرّ لمدير المنطقة، وإن لم ترغب السيّدة في ذلك!». فأجابت هياسنت بحدّةٍ:

– «هذا ما لن أفعله أبدًا. وإنّي لأوثر الموت على فعله».

«قرّرنا تلاوة المسبحة، فانتزعت هياسنت إيقونةً معلّقةً بعنقها، وطلبت من سجينٍ أن يعلّقها على مسمارٍ مثبّتٍ في الجدار، وركعنا أمامها، وشرعنا نصلّي. وشاركنا السجناء

الصلاة، بقدر ما كانوا يعرفون، ولكنّهم، أقلّه، كانوا راكعين. ولحظ فرنشيسكو أنّ أحدهم كان راكعًا، وقبّعته على رأسه، فجاءه، وقال له: «إن كنت تبتغي الصلاة، فانتزع قبّعتك». فامتثل الرجل المسكين، وخلع قبّعته، وناولها لفرنشيسكو الذي وضعها على مقعدٍ، فوق قبّعته الخاصّة.

«وبغتةً دخل شرطيٌّ، وصاح بهياسنت، بصوتٍ مريعٍ: «إنّ الزيت يغلي، فبوحي بالسرّ، ما لم تكوني راغبةً في الاحتراق!».

– «لا أستطيع ذلك!».

– «إذن سأكرهك عليه، تعالي». فانطلقت معه، في الحال، ولم تودّعنا.

«وفيما كانت هياسنت تخضع للاستجواب، قال لي فرنشيسكو، بفرحٍ وسكونٍ جمّين: «إن هم قتلونا، بحسب قولهم، فسنكون، عمّا قريبٍ، في السماء، يا للسعادة! أنا لستُ خائفًا!» وعقب برهة صمتٍ، أردف: «أسأل الله ألاّ

ينتاب هياسنت أَيّ خوفٍ. سأتلو، من أَجلها «السلام». وفي الحال انتزع قبّعته وطفق يصلّي. وإذ رآه الحارس في هذا الوضع، سأله: «ما الذي تقوله؟».

– «إنّي أَتلو صلاة «السلام عليك يا مريم»، لكيلا ينتاب هياسنت أَيّ خوفٍ».

فبدرت عن الحارس إيماءة ازدراءٍ، ومضى في سبيله.

لم يلبث الشرطيّ أَن عاد كي يستصحب فرنشيسكو، وقال:

– «ها قد ماتت هياسنت. والآن، أَلا تبوح، أَنت، بالسرّ؟».

– «لا أَستطيع البوح به لأَحدٍ!».

– «سنرى ذلك!» وأَمسكه من ذراعه، وجرّه خلفه. ولكن لمّا انتهى فرنشيسكو إِلى مكان التعذيب المزعوم، لم يشهد مقلاةً تفور بالزيت المغليّ، بل رأى عينَي أُخته الصغيرتين المفعمتين رقّةً.

المنزل الذي وُلد فيه فرنسوا وياسينت وحيث مات فرنسوا

وتكرّر السيناريو عينه مع لوسيّا. ولمّا سئلت، بعد سنواتٍ، عن الانطباع الذي داخلها حينئذٍ قالت: «كنت أتخيّل أنّ مدير الناحية كان جادًّا في تنفيذ وعيده. ولكن لم يساورني أيّ خوفٍ، بل كنت أوكل ذواتنا إلى السيّدة العذراء».

وأطلق مدير الناحية تهديدًا أخيرًا بإلقاء الأطفال الثلاثة، معًا، في المقلاة. ولكنّه لم يظفر لا بسرٍّ، ولا بإقرارٍ ما.

لا ريب أنّ قوّةً علويّةً كانت تساند الأطفال وتصونهم، وأنّ الحقيقة السماويّة كانت تزوّدهم بقدرةٍ مدهشةٍ على الصمود.

صباح اليوم التالي، وبعد استجوابٍ أخيرٍ، لم يجنِ منه مدير الناحية أيّة ثمرةٍ، لم يكن له مفرٌّ من إعادة الأطفال إلى مدينة فاطمة، فأنزلهم عند مدخل دار الأبرشيّة، والتجأ إلى مقهًى مجاورٍ. وحاول رجالٌ مسلّحون بالهراوات الاقتصاص منه، انتقامًا لاختطافه الأطفال الرؤاة، فتدخّل والد فرنشيسكو وهياسنت، وكاهن الرعيّة، وسكّنوا النفوس.

غير أنّ كثيرين اتّهموا كاهن الرعيّة بالتواطؤ مع مدير الناحية، فاضطرّ، تبريرًا لنفسه، إلى نشر بيانٍ في صحيفة

الأب مانويل ماركس فرّيرا،
كاهن رعيّة فاطمة بين ١٩١٣ و١٩١٩

ليشبونة الكاثوليكيّة، جاء فيه: «إنّ قلب الكاهن الكاثوليكيّ الذي يخفق في صدري، يأبى إلاّ دحض كلّ قوى الافتراء، والتلميحات الظالمة الموجّهة إليّ، وإلاّ الإعلان، على رؤوس الملأ، أنّه لم يكن لي أيّة مساهمةٍ، ولو ضئيلةٍ، مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ، في عمل الرجس البشع المتمثّل في اختطافٍ مفاجئٍ لأطفالٍ من هذه الرعيّة قالوا إنّهم رأوا السيّدة العذراء».

ومضى بيان الكاهن قائلاً: «لقد أفاد أُلوف الشهود أنّ غياب الأطفال لم يمنع ملكة الملائكة من إظهار قدرتها. فجميع أولئك القوم يؤكّدون حدوث ظواهر مدهشة أسهمت في ترسيخ إيمانهم... ليست العذراء في حاجةٍ إلى حضور كاهنٍ كي تُظهر عطفها... وعلى أعداء الدين ألاّ يشوّهوا ظواهر عطف العذراء الساطعة، بعزوهم إيمان الشعب إلى حضور الكاهن ونصائحه. فالإيمان هبةٌ من الله، وليس من صنع الكهنة. هذا هو الدافع الحقّ لغيابي، ولعدم مبالاتي، ظاهريًّا، بحدثٍ على قدرٍ رفيعٍ من السموّ والإعجاز...».

١٣ آب: ظواهر خارقة، في غياب الرؤاة

لا بدّ من العودة إلى ظهيرة الثالث عشر من أب، من أجل فهم ما أشار إليه كاهن الرعيّة في المقطع الثاني من بيانه الآنف الذكر.

ففي ذلك اليوم كان موعد ظهور العذراء قد حان، والأطفال الرؤاة محتجزون لدى مدير الناحية الذي انتشى زهوًا، إذ خُيّل إليه أنّ حيلته الحقيرة قد أفلحت في إفساد ظهور ذلك اليوم. ولكن غاب عن ذهنه المريض أنّه، إن كان بمكنته احتجاز أطفالٍ عُزَّلٍ، فليس لديه قِبَلٌ على احتجاز قدرات السماء.

وفي الواقع كان قد احتشد، في «كوڤا دا إيريا»، منذ صباح ذلك اليوم، جمعٌ غفيرٌ قُدّر عدده بين عشرة آلافٍ، وعشرين ألف شخصٍ، أحاطوا بشجرة البلّوط التي أَلِفت

العذراء الظهور فوقها، وانطلقوا يتلون المسبحة وينشدون الترانيم لوالدة الله. وكاد صبرهم ينفد، بعد أن طال تلكّؤ الرؤاة عن الظهور.

وحينئذٍ وافى، من مدينة فاطمة، من أشاع نبأ اختطاف مدير الناحية للرؤاة الثلاثة. فدوّت صيحات الاستنكار، وساد الهرج والمرج، وربّما كانت الأُمور انقلبت إلى فوضى عارمةٍ، لولا دويّ رعدٍ مفاجئٍ، يحاكي الدويّ الذي كان يحدث في أثناء الظهورات السابقة. فعمّ الصمت مشوبًا بالرعب، وأخذ الجمع يرفضّ، تحسّبًا لمكروهٍ قد يحدث. وعقِبَ هزيمَ الرعد برقٌ، وظهرت، في الجوّ، غمامةٌ صغيرةٌ بيضاء، رقيقةٌ، رفرفت بضع دقائق، فوق شجرة البلّوط، ثمّ تعالت في الجوّ وتوارت.

وتكرّرت ظاهرةٌ كانت قد حدثت في أثناء ظهوراتٍ سابقةٍ، إذ اصطبغت وجوه الحضور بكلّ أطياف قوس قزح، من زهريٍّ، وأحمر، وأزرق، إلخ... واستعاضت الأشجار عن أوراقها بأزهارٍ، إذ تحوّلت كلّ ورقةٍ إلى زهرةٍ، وبدت

الأَرض وكأَنّها تحوّلت إِلى مربّعاتٍ متعدّدة الأَلوان. وحتّى ثياب الحضور اصطبغت بكلّ أَلوان قوس قزح، وبدا المصباحان المتدلّيان من القوس البدائيّ الذي نصبه مؤمنون، وكأَنّهما من ذهبٍ.

وهكذا، رغم الظروف القاهرة التي حبست الرؤاة عن المجيء، لم تتخلّف العذراء عن الحضور، ولم تخيّب رجاء الحشود، فحدث كلّ شيءٍ، وكأَنّ الظهور قد تمّ، وبرهنت ملكة السماء عن حضورها بعلاماتٍ رائعةٍ مدهشةٍ شاهدها الأُلوف.

هذه الظواهر أَذكت نقمة الجماهير على الذين حرموا العذراء من أَطفالها، في ذلك اليوم، وقد توجّه كثيرون منهم إِلى مدينة فاطمة، كي يعبّروا عن سخطهم وغضبهم، وتنديدهم بمدير المنطقة وأَزلامه، ومتّهمين حتّى كاهن الرعيّة بالتواطؤ مع السلطات المدنيّة.

ظهور ١٩ آب

لم تحرم الأُمّ العذراء أَطفالها الأَعزّاء فرحة مشاهدتها، في ذلك الشهر، رغم كلّ شيءٍ. فبعد ظهر يوم الأَحد الواقع في١٩ آب، شخصت لوسيّا مع فرنشيسكو وأَخيه الأَكبر جان، البالغ من العمر أَحد عشر عامًا إِلى مرعًى يدعى «ڤالينيُس» كي يرعوا فيه أَغنامهم، وهذا المكان يقع بين «الجوستيل» وقمّة «كابيصو»، وهو غنيٌّ بالكلأ.

ولنستمع إِلى الأُخت لوسيّا تروي ذكرياتها عن ذلك اليوم:

«شعرت بشيءٍ فائق الطبيعة يدنو ويلفّنا، وساورني انطباعٌ بأَنّ السيّدة العذراء ستظهر لنا. ولكن شقّ عليّ أَلاّ تكون هياسنت معنا كي تراها. فطلبت من أَخيها الأَكبر جان أَن يمضي سريعًا ويعود بها، وإِذ كان راغبًا في المكوث كي يرى العذراء، هو أَيضًا، أَغريتُه بقطعتَيْ نقود كانتا في جيبي،

فمضى يعدو بأَقصى ما أوتي من سرعةٍ، وما لبث أَن عاد برفقة هياسنت. وكانت الساعة نحو الرابعة بعد الظهر».

وتتابع لوسيّا روايتها، فتقول: «في هذه الأَثناء شاهدنا، أَنا وفرنشيسكو، انعكاس النور الذي كنّا ندعوه برقًا، بعد لحظاتٍ، وكانت هياسنت قد وصلت، شاهدنا السيّدة العذراء، فوق شجرة بلّوطٍ، فسألتها:

– «ماذا تبتغي سعادتك منّي؟».

– «**أُريد أَن تستمرّوا في الشخوص إلى «كوڤا دا إيريا» في الثالث عشر من كلّ شهرٍ، وأَن تواصلوا تلاوة المسبحة يوميًّا. وفي الشهر الأَخيرٍ، سأجري المعجزة التي ستجعل الجميع يؤمنون... حينئذٍ سيحضر القدّيس يوسف مع يسوع الطفل، كي يمنح العالم السلام. وسيحضر ربّنا كي يبارك الشعب، وستحضر، أَيضًا، سيّدة الورديّة، وسيّدة الآلام**».

– «وماذا تريدين أَن نفعل بالمال الذي يلقيه الحجّاج في «كوڤا دا إيريا»؟

– «أُريد أَن يُصنع محملان للتطواف بهما، أَحدهما مذهّبٌ ستحملينه أَنت وهياسنت وفتاتان أُخريان، وجميعكنّ مرتدياتٌ ثيابًا بيضاء، والآخر فضّيّ اللون، سيحمله فرنشيسكو وثلاثة صبيانٍ في مثل سنّه، مرتدين قمصانًا كنسيّةً بيضاء، بمناسبة الاحتفال بعيد سيّدة الورديّة. وما يفضل من مال، فليُستخدم في بناء مزارٍ في هذا المكان.

– «أَودّ التماس شفاء بعض المرضى.

– «سأشفي بعضًا منهم خلال السنة».

«واعترت السيّدة، بغتةً، مسحةُ حزنٍ، وقالت:

– «صلّوا وأَكثروا من الصلاة، وضحّوا من أَجل الخطأة. فإنّ نفوسًا عديدةً تهوي إِلى جهنّم، لأَنّه لا يوجد من يصلّي، ويضحّي من أَجلها».

ثمّ أَخذت السيّدة ترتقي في الفضاء، باتّجاه الشرق...

وقبل عودة الأَطفال إِلى المنزل، اقتطع فرنشيسكو

وهياسنت غصنًا من شجرة البلّوط، كانت السيّدة العذراء قد وطئته بقدميها. وكانا يحملان هذا الكنز الثمين عندما التقيا والدة لوسيّا، جالسةً مع أَشخاصٍ آخرين عند عتبة منزلها. فبادرتها هياسنت قائلةً، بتأثّرٍ عميقٍ:

– «يا عمّتي، لقد رأينا السيّدة العذراء، مرَّةً أُخرى، في «ڤالينيُس».

– «آه! هياسنت، ستظلّون تكذبون! وهل صارت العذراء تظهر لكم، حيثما ذهبتم؟

– «ولكنّنا رأيناها، حقًا!».

ولكي تبرّر إِصرارها وتؤكّد مصداقيّتها، أَرتها غصن البلّوط الذي كانت تحمله، قائلةً: «انظري، يا عمّة! لقد كانت السيّدة تضع قدمًا على هذا الجزء من الغصن، والقدم الأُخرى على هذا الجزء الآخر».

تناولت ماريّا روزا الغصن، وأَدنته من أَنفها، وتساءلت: «ما هذه الرائحة الطيّبة؟». واستمرَّت تشمّ الغصن، دهشةً،

وقائلةً: «إنّها ليست رائحة عطرٍ، ولا رائحة بخّورٍ، ولا رائحة صابونٍ معطّرٍ. لعلّها رائحة وردٍ. ولكن، لا، ليست كذلك. ولا هي أيّة رائحةٍ أعرفها. ولكنّها رائحةٌ ذكيّةٌ!» ورغب الجميع في استنشاق رائحة الغصن، ووجدوها غايةً في العذوبة...

ومنذ ذلك التاريخ، بات الرؤاة الثلاثة يبتدعون تضحياتٍ جديدةً، يقدّمونها ليسوع «حبًّا به، ومن أجل ارتداد الخطأة، وتكفيرًا عن الإهانات التي تُلحق بقلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ».

وذات يومٍ، عثرت لوسيّا على حبلٍ مرميٍّ في الطريق، فتناولته، ولفّته على ذراعها، وما عتّمت أن تبيّنت أنّه كان يؤلمها، فاقترحت على رفيقيها أن يشدّوا به خصورهم، ويقدّموا أَلمه تضحيةً، فاقتسموا الحبل بينهم، وكان يسبّب لهم آلامًا مبرِّحةً، من جرّاء قسوته، وخشونته، وبسبب مغالاتهم في شدّه على خصورهم. وكانت هياسنت تبكي، أحيانًا، وجعًا، فتحضّها لوسيّا على نزع الحبل، ولكنّها كانت ترفض،

مؤثرةً احتمال الآلام، تضحيةً تقدّمها ليسوع، تكفيرًا عن خطايا البشر، ومن أجل ارتداد الخطأة.

ولم يكن الرؤاة الأطفال يتقاعسون عن اقتناص أيّة فرصةٍ، لاحتمال الإهانات والمشاقّ من كلّ نوعٍ، تضحياتٍ للربّ، تحدوهم مثل هذه النوايا التكفيريّة.

الخميس ١٣ أَيلول: ظهورٌ رائعٌ

منذ فجر الثالث عشر من أَيلول غُصّت جميع الدروب المؤدّية إِلى فاطمة بالجموع التي تضمّ بعض الفضوليّين، وبالكثير من الحجّاج المؤمنين الخاشعين الذين يسيرون وهم يتلون المسبحة، وينشدون الترانيم. وقد تراوح عددهم، قبيْل الظهر، بين خمسةٍ وعشرين وثلاثين أَلفًا. ووصل الرؤاة الثلاثة إِلى «كوڤا دا إِيريا» بمشقّةٍ. فكثيرون هم الذين كانوا يوقفونهم، كي يبسطوا بين أَيديهم مطالب يرجونهم إِبلاغها إِلى السيّدة العذراء. والذين لم يتسنَّ لهم الاقتراب من الرؤاة، كانوا يجأرون باحتياجاتهم من بعيدٍ، من فوق جدرانٍ تسنّموها، أَو أَغصان أَشجارٍ تسلّقوها، بغية مشاهدة الرؤاة، ومكالمتهم، وأَعلنوا ملتمساتهم على رؤوس الملأ، وقد تخلّوا عن كلّ حياءٍ بشريٍّ.

وحالما انتهى الرؤاة إلى شجرة البلّوط، بدأت تلاوة المسبحة. كان صوت لوسيّا الرقيق يتلو الجزء الأوّل من كلّ «سلام»، فيكمل الشعب الجزء الثاني، بصوتٍ هادرٍ.

وعند الظهيرة، ساد الصمت، وما عادت تُسمع سوى تمتمات صلواتٍ فرديّةٍ. وبغتةً، دوّت صيحات ابتهاجٍ، وتعالت الأنظار نحو السماء حيث شوهد جرمٌ نيّرٌ ينزلق بتؤدّةٍ وجلالٍ، في الفضاء، إلى أن استقرّ فوق شجرة البلّوط، شجرة الظهورات.

حينئذٍ فترت حرارة الشمس، واصطبغ الجوّ بلونٍ ذهبيٍّ، مثلما كان قد حدث سابقًا، وخبا نور النهار، بحيث استطاع البعض مشاهدة النجوم بوضوحٍ، في كبد السماء. وحينئذٍ، انعقد الحوار التالي بين العذراء كلّيّة القداسة، ولوسيّا:

– «ما الذي تبتغيه منّي سعادتك؟

– «**استمرّوا في تلاوة المسبحة، كي تظفروا بانتهاء الحرب. وفي شهر تشرين الأوّل، سيأتي ربّنا، وستأتي**

سيّدة الآلام والكرمل، والقدّيس يوسف مع الطفل يسوع، من أجل مباركة العالم.

«إنّ اللّه راضٍ عن تضحياتكم، ولكنّه لا يريد أن تناموا والحبل مشدودٌ على جسمكم. شدّوا الحبل في أثناء النهار فقط...

– لديّ طلباتٌ عديدةٌ، بعضها يلتمس ارتداداتٍ، وأُخرى تلتمس أشفيةً.

– سأشفي بعضهم، ولن أشفي آخرين، لأنّ الربّ لا يثق بهم.

– يودّ الشعب بناء مزارٍ هنا.

– بنصف المال المقدَّم حتّى اليوم، اصنعوا محملين للاحتفال بعيد سيّدة الورديّة، واستخدموا الباقي في سبيل بناء مزارٍ».

حينئذٍ قدّمت لوسيّا للعذراء رسالتين وقارورة عطرٍ كان قد قدّمها رجلٌ من رعيّةٍ مجاورةٍ، ولكنّ العذراء قالت:

– «**لا تصلح هذه للسماء**».

وبعد أَن كرّرت السيّدة العذراء وعدها بإجراء معجزةٍ كفيلةٍ بجعل الجميع يؤمنون، في الشهر القادم، أَخذت ترتفع في الجوّ بتؤدّةٍ، وتتوارى رويدًا رويدًا.

في أَثناء الحوار الذي دار بين لوسيّا والزائرة السماويّة، تراءى للحجّاج الحاضرين مشهدٌ مدهشٌ، كان تكرارًا لما شوهد بمناسبة ظهوراتٍ سابقةٍ، فقد عاينوا السماء تمطر ما يشبه بتلات وردٍ بيضاء، أَو رقع ثلجٍ ناصعةً، متلألئةً، مستديرةً، تهبط بتؤدّةٍ، ثمّ تتلاشى لدى ملامستها الأَرض.

وعرضت السيّدة العذراء دليلاً آخر على حضورها، إِذ تكوّنت حول القوس البدائيّ الذي أَقامته تقوى بعض المؤمنين، على مقربةٍ من شجرة الظهورات، غمامةٌ رقيقةٌ، جميلة المنظر، تعالت من الأَرض، وتكثّفت، وتصاعدت حتّى ارتفاع نحو ستّة أَمتارٍ، ثمّ تلاشت كما يتلاشى الدخان في السماء. وبعد لحظاتٍ، تكوَّنت، أَيضًا، لوالب دخانيّةٌ

مماثلةٌ، وتصاعدت، ثمّ تبدّدت، وتكرّر المشهد ثلاثًا، كما لو أَنّ مباخر غير مرئيّةٍ كانت تكرّم الظهور بالمباخر.

ولّما أَنهت لوسيّا حوارها مع الزائرة السماويّة، هتفت: «إِن كنتم راغبين في رؤيتها، فانظروا في هذا الاتّجاه. وأَشارت بإِصبعها إِلى الشرق. وحينئذٍ، شوهد، ثانيةً، الجرم النيّر، بيضاويّ الشكل، يسمو في الجوّ، وينأى باتّجاه الشرق. كان الرؤاة قد شاهدوا العذراء بجسدها الممجّد، وأُعطي للحجّاج الحاضرين رؤية المركبة التي أَقلّتها من السماء إِلى الأَرض الموحشة.

غير أَنّ زهاء ثلث الحاضرين لم يروا شيئًا، ومنهم ماريّا روزا، والدة لوسيّا، التي كانت تأمل بأن يكون ذلك اليوم حاسمًا في إِقرار صحّة الحديث أَو عدمه. وإِذ لم يتسنَّ لها أَن ترى شيئًا، استأنفت اضطهاد ابنتها، بغيةَ إِكراهها على إِعلان كذب كلّ ما سبق لها من رواياتٍ، ولا سيّما أَنّ سيلاً جارفًا من الزائرين كان يتدفّق، بلا انقطاعٍ، على منزل الأُسرة، من أَجل استجواب الرائية، أَو ربّما انتزاع السرّ

أيلول ١٩١٧ في مكان الظهورات

ائتمنتها عليه السيّدة العذراء. وإذ كانوا يمعنون في الإصرار، ولا ينأون عن المنزل حتّى يكلّموا لوسيّا، كانت تضطرّ إحدى أخواتها إلى الانقطاع عن عملها، كي تحلّ محلّها في رعاية الأغنام، وكان هذا الانقطاع عن العمل يعني للأُسرة خفضًا لمواردها، واختلالاً في ميزانيّتها. وفي نهاية المطاف، لم يكن لربّة الأُسرة مفرٌّ من بيع قطيعها الصغير. وقد حمّل جميع أفراد الأُسرة لوسيّا وزر هذه العاقبة الكارثيّة.

في منتصف شهر أيلول، استضافت امرأةٌ مؤمنةٌ من قريةٍ مجاورةٍ، في منزلها، كلاًّ من لوسيّا وهياسنت، أملاً في انتزاعهما من مطاردة الفضوليّين، وتوفير شيءٍ من السكينة لهما. ولكن سرعان ما استهدى القوم إلى ملاذهما، فعاد سيل الزائرين يتدفّق عليه. وعندما تبيّنت السيّدة المضيفة مدى اندفاع القوم، حذّرت الفتاتين: «إن لم تتحقّق، في ١٣ تشرين الأوّل، المعجزة الكبرى الموعودة، فقد يقدم القوم على إحراقكما، وأنتما على قيد الحياة». ولكنّ الفتاتين لم تتخلّيا عن بهجتهما وعن سكونهما، ولم يخامرهما أيّ خوفٍ، بل أعلنتا: «نحن لا نخاف، لأنّ السيّدة لا تخدعنا.

وقد أَكّدت لنا أَنّ معجزةً كبرى ستحدث، وستُكره الجميع على تصديق ظهورها».

ومن جهةٍ أُخرى، أُشيع أَنّ السلطات المدنيّة ستعمد إِلى تفجير قنبلةٍ في موقع الظهورات، في اليوم الموعود؛ وقد أَدخلت هذه الإِشاعة الذعر إِلى قلوب ذوي الرؤاة. ولكنّ الأَطفال أَنفسهم لم تداخلهم أَيّة خشيةٍ، فالموت الكفيل بجعلهم على مقربةٍ دائمةٍ من يسوع وأُمّه كان أَقصى مُناهم، ناهيك عن ثقتهم المطلقة بالأُمّ السماويّة.

الظهور السادس ١٣ تشرين الأَوّل

كان آلاف الذين شهدوا ظهور الثالث عشر من أيلول وما واكبه من خوارق قد أَذاعوا تفاصيل مشاهداتهم في كلّ مكانٍ، وأَذاعوا وعد العذراء بإِجراء معجزةٍ كبرى في أَثناء ظهورها الأَخير القادم، وسرعان ما انتشر هذا النبأ في طول البلاد وعرضها.

ومن ثمّ لمّا حلّ يوم السبت الواقع في ١٣ تشرين الأَوّل، كان قد احتشد في «كوڤا دا إيريا» خلقٌ غفيرٌ تراوح عديده بين ستّين وسبعين أَلفًا، تسنّى لهم معاينة معجزةٍ مذهلةٍ، منقطعة النظير. وكان لشهادتهم وزنٌ محقَّقٌ، في حين بُلّغ الرؤاة الثلاثة الصغار رسالةً على جانبٍ كبيرٍ من الشأن والخطورة.

منذ عشيّة ذلك اليوم المشهود، شرع آلاف الناس يتقاطرون

من كلّ صوبٍ إلى موقع الظهورات، لا يردعهم مطرٌ مدرارٌ، لم ينقطع هطوله طيلة الليل، ولا قرٌّ كان يخترق العظام، ولا الطرقات التي انقلبت موحلةً. قليلون وافوا مستقلّين وسائل نقلٍ متنوّعةً، في حين قدم كثيرون راجلين، مجتازين، أحيانًا، مسافاتٍ شاسعةً، تحت المطر المتهاطل، وفوق الوحل اللزج، وهم ينشدون الترانيم ويتلون المسبحة. وكانت بعض النسوة يسرنَ حافياتٍ، تنفيذًا لنذرٍ ارتبطنَ به. وقد قضى معظم القادمين ليلتهم في العراء، غير عابئين بالمطر، والريح، والبرد، والرطوبة النفّاذة.

وحدَها، السيّدة ماريّا روزا، والدة لوسيّا، كانت متردّدةً، من جرّاء خشيتها ألاّ تحدث المعجزة المنتظرة، فتنتقم الجماهير من ابنتها، ولذلك، وطّنت العزم، هي وزوجها، على مرافقتها، ولسان حالهما يقول: «إن كان عليها أن تُقتَل، فلنُقتَل معها، ولنمت إلى جانبها!».

وحرصت امرأةٌ نبيلةٌ على إلباس لوسيّا وهياسنت بنفسها ثيابًا تليق برؤاة العذراء، فجاءت بثوبٍ سماويٍّ للوسيّا،

وبثوبٍ أَبيض لهياسنت، وكلّل الشعب هامتيهما برياحين عطريّة.

وتوقّع الرؤاة صعوبة الوصول إِلى غايتهم، بسبب كثافة الحشود، فغادروا المنزل باكرًا، وتطوّع رجالٌ أَشدّاءُ لشقّ الصفوف أَمامهم، في حين حمل سائقٌ هياسنت الصغيرة بين ذراعيه، إِلى أَن وضعها أَمام شجيرة البلّوط. ولحظ فرنشيسكو ولوسيّا خوف رفيقتهما الصغيرة، فأَحاطا بها، كي يقياها من الزحام.

كانت الساعة الواحدة بعد الظهر، عندما انتهى الرؤاة إِلى موقع الظهورات، وإِذ بقوّةٍ داخليّةٍ سرّيّةٍ تدفع لوسيّا إِلى الإِهابة بالجماهير أَن يطووا المظلاّت التي كانوا يتّقون بها المطر، وأَن يشرعوا بتلاوة المسبحة معًا. واستجاب الحضور لطلبها في الحال، بل إِنّ كثيرين لم يتهيّبوا الركوع في الوحل.

وبغتةً رنت لوسيّا صوب الشرق وهتفت: «لقد شهدتُ وميض برقٍ. ها إِن السيّدة قادمة!». وما لبثت العذراء أَن

١٣ تشرين الأوّل ١٩١٧،
وقد حمل سائقٌ هياسنت لوقايتها من الازدحام

ظهرت فوق شجيرة البلّوط التي كانت تقوى بعض المؤمنين قد زيّنتها، منذ الأمس، بالشرائط الحريريّة والأزاهير. وفي الحال عرا لوسيّا انخطافٌ، فاكتسى محيّاها بهاءً خارقًا، واصطبغ بلونٍ زهريٍّ، ودقّت شفتاها. وظلّت على هذه الحال إلى أن دفعتها أُمّها بمنكبها، قائلةً: «ها إنّ السيّدة قد حضرت، فكلّميها». فاستعادت لوسيّا وعيها، ودار بينها وبين الزائرة السماوية الحوار التالي:

– «ماذا تبتغي منّي سعادتك؟

– أريد أن يُشاد هنا مزارٌ تكريمًا لي. أنا سيّدة الورديّة. استمرّوا في تلاوة المسبحة كلّ يومٍ. ستنتهي الحرب قريبًا، وسيعود الجنود إلى منازلهم.

– كان لديّ طلباتٌ كثيرةٌ أَلتمسها منك: شفاء مرضى، وارتداد خطأةٍ، إلخ...

– سأُلبّي بعضها، وسأُعرض عن أُخرى. فعلى القوم أن يصطلحوا، ويلتمسوا غفران خطاياهم.

وارتسمت على ملامح العذراء أَمارات الحزن، واستأنفت القول:

– **فليكفّوا عن إلحاق مزيدٍ من الإساءة بالله، ربّنا. فحسبه ما ناله من فرط الإهانات!**

– أَلا تبتغين منّي شيئًا آخر؟

– **كلاّ.**

– إِذن، لن أَلتمس منك المزيد.

وشهد الحضور، مثلما كان قد شوهد في أَثناء ظهور الشهر الفائت، غمامةً تتكوّن حول شجيرة البلّوط، وتتصاعد في الجوّ، ثمّ تتلاشى. وقد تكرّر هذا المشهد ثلاثًا. وهتفت لوسيّا: «إِنّها ماضيةٌ». وحينئذٍ تنشّقت والدة لوسيّا العُرْف الطيّب عينه الذي كانت قد تنشّقته من غصن شجرة البلّوط الذي كانت هياسنت قد جاءتها به في التاسع عشر من آب.

ثمّ هتفت لوسيّا: «انظروا الشمس!» فقد كانت العذراء، في تلك اللحظة قد بسطت يديها، فانعكس نورها على

الشمس، وفيما كانت تحلّق في السماء، لم يكفَّ نورها ينعكس على الشمس.

وتسنّى، حينئذٍ، للقوم أَن يحدّقوا إِلى الشمس، فلا تصاب عيونهم بأَذًى، وكأَنّهم كانوا يحدّقون إِلى القمر، أَو إِلى قرصٍ معدنيٍّ كامد. وقد أَفاد شهودٌ: «كانت الشمس تبدو وكأَنّها تنطفئ ثمّ تشتعل ثانيةً. كانت تبعث حُزَم نورٍ في كلّ اتّجاهٍ، وتصبغ كلّ شيءٍ: الأَشجار، والناس، والأَرض، والهواء، بأَلوانٍ متنوّعةٍ تتعاقب فيها كلّ أَطياف قوس قزحٍ، وكانت تدور حول ذاتها بسرعةٍ هائلةٍ. وفي لحظةٍ ما، ثبتت في مكانها، ثمّ استأنفت ميَدانها، إِلى أَن حان وقتٌ بدت فيه، وكأَنّها تنفكّ عن السماء، وتهجم نحونا. كانت تهتزّ اهتزازًا مريعًا، ولكأَنّها عجلةٌ من نارٍ تهمّ بالهبوط فوق جميعنا. وتعالت صيحات الهلع والاستغاثة، منها ما يجأر: «يا يسوع، نكاد نموت جميعنا!». ومنها ما يصيح: «يا عذراء، أَغيثينا!». وتلا كثيرون فعل الندامة، بصوتٍ مرتفعٍ، لا بل إِنّ امرأَةً اعترفت بكلّ خطاياها اعترافًا علنيًّا على مسمعٍ من الجميع.

الكنيسة الصغيرة التي بناها المؤمنون
سنة ١٩١٨ في مكان الظهورات

وبغتةً، توقّفت الشمس عن ترنّحها، وثبتت في مدارها، وتنفّس القوم الصعداء. لقد نجَوا جميعهم، ووفت العذراء بوعدها، محقِّقةً معجزةً مذهلةً. لقد ظهرت، حقًّا، في السماء آيةٌ عظيمةٌ (رؤيا ١١: ١٢)».

رقصة الشمس هذه لم تشاهدها فقط الجموع المحتشدة في «كوڤا دا إيريا»، بل تسنّى لكثيرين، في قرًى ومدنٍ تفصلها عن ذلك المكان مسافاتٌ شاسعةٌ، معاينتها، أيضًا.

وأخيرًا، آمن كثيرون من المشكّكين، وفي طليعتهم والدة لوسيّا التي طالما اتّهمت ابنتها باختلاق الأكاذيب، واعترفت: «الآن لم يعد بوسع أحدٍ ألاّ يصدّق، إذ ليس بوسع أيّ بشرٍ أن يعبث بالشمس».

وجديرٌ بالتنويه أنّ المطر توقّف بغتةً، عن الهطول، عند بدء الظهور، وأنّ ثياب الحضور التي كانت مبلّلةً حتّى أعماقها، قد جفّت جفافًا كاملاً في الحال، والذين ركعوا في الوحل لم يظهر على ثيابهم أيّ أثر تلوّثٍ.

وفيما كان الحضور مأخوذين بمنظر رقصة الشمس، كان

الرؤاة الثلاثة ينعمون بمشهدٍ آخر، يفوق ذاك روعةً، بلا قياسٍ. فقد أُعطوا أن يشهدوا، على صفحات السماء، ثلاث لوحاتٍ أَخّاذةٍ:

– فيما كانت العذراء تغوص في السماء اللامتناهية، رأى الأَطفال، إلى جانب الشمس، القدّيس يوسف مع يسوع الطفل، والسيّدة العذراء مرتديةً ثوبًا أَبيض يعلوه معطفٌ سماويّ اللون. وكان القدّيس يوسف ويسوع الطفل يباركان بيديهما العالم، راسمَين إِشارة صليبٍ.

– وعقبت هذه اللوحة لوحةٌ أُخرى، ظهرت فيها العذراء، في منظر سيّدة الآلام، وإِلى جانبها الربّ يسوع يبارك العالم.

– وما إِن اختفى هذا المشهد، حتّى شاهد الرؤاة العذراء، في هيئة سيّدة الكرمل.

في الموعد المحدّد، نفّذت العذراء وعدها تنفيذاً رائعًا تخطّى كلّ توقّعٍ، وكلّ ما يجرؤ خيالٌ على تصوّره.

من كلّ أَحداث ذلك اليوم، كان أَعمق ما انحفر في قلب لوسيّا قول العذراء: «**لا تُلحقوا بربّنا المزيد من الإِهانات.**

فحسبه ما لحق به منها!» ولكم تمنّت أن تدوّي صيحة الحبّ والتوسّل هذه، المتفجّرة من قلب الأُمّ السماويّة، في قلوب البشر أَجمعين! وقد اعترفت، بعد سنواتٍ عديدةٍ: «**أَظنّ أَنّ اللّٰه أَراد استخدامي فقط من أَجل تذكير العالم ضرورة تجنّب الخطيئة، والتكفير عن الذنوب التي تغيظ ربّنا، بالصلاة والتوبة**».

الفصل الثالث

سيرة الرؤاة بعد الظهورات

فرنشيسكو

منذ الظهور الأوّل، في ١٣ أيّار ١٩١٧، سكن فرنشيسكو هاجسٌ واحدٌ، وشعورٌ فردٌ: الربّ والعذراء حزينان حزنًا عميقًا، وعلينا، نحن أن نعزّيهما. فرغم سعادته الجوهريّة الأبديّة، يتألّم الربّ من جرّاء خطايانا وقسوة قلوبنا التي تجعلنا نُصمّ آذاننا عن نداءاته، وستستمرّ آلامه، ما دام البشر ماضين في عقوقهم، وفي إهاناتهم له. «إنّهم يعيدون، بأنفسهم، صلب ابن الله، ويشهّرونه»، بحسب قول الرسول بولس (عبرانيّين ٦:٦). ولكأنّ الربّ يقول مع صاحب المزامير: «انتظرت من يرثي فلم يكن، ومن يعزّي فلم أجد» (٢١:٦٨)

وفي ظهور ١٩آب، بدت العذراء مفجوعةً، وقد توسّم

فرنشيسكو، في هذه الرؤيا، دعوته وغاية وجوده: تعزية الربّ والسيّدة العذراء.

فغدا يختلي، وحيدًا، كي يصلّي، وكي يقدّم تضحياته تكفيرًا وتعزيةً، راكعًا متأمّلاً في حزن الربّ. وكانت غاية مناه أن يشخص إلى السماء، حيث يمكث، إلى الأبد، مع الربّ يسوع، يشاهده ويعزّيه.

وريثما يحين أوان شخوصه إلى السماء، كان يأنس إلى المكوث عند قدمي الربّ، أمام الهيكل. كان يؤثر تلك الخلوة على المدرسة، إذ لم يكن يرى في الدراسة طائلاً، فإقامته على الأرض قصيرة الأمد، وحرامٌ هدرها في جهدٍ نافلٍ. ولكنّه، بسبب انقطاعه عن المدرسة، لم يستطع استذكار الصيَغ التي تؤهّله للمناولة الأولى، فلم يتناول سوى الزاد الأخير، وهو على سرير الموت.

وقد كُلِّف، يومًا، بالصلاة من أجل شابٍّ كان قد اتُّهم، بهتانًا، بجرمٍ كان من شأنه أن يبقيه، سنواتٍ عديدةً، نزيل السجن. وفيما غشت أُخته هياسنت وابنة خاله لوسيّا المدرسة،

اختلى هو مع يسوع المتواري في بيت القربان، ولمّا خرج من خلوته، بلّغ لوسيّا أن تطمئن ذوي الشابّ، بأنّه سيعود، في غضون أيّامٍ معدوداتٍ إلى بيته. وصدقت نبوءته.

في شهر تشرين الأوّل من عام ١٩١٨، أُصيب هو وأُخته هياسنت بالحمّى الإسبانيّة التي تفشّت في البرتغال، حاصدةً مئات الضحايا، والتي كانت تتحوّل، غالبًا، إلى التهابٍ رئويٍّ حادٍّ، قاتلٍ. وقد أظهر، طيلة مرضه، صبرًا بطوليًّا، فلم تُسمع منه أيّة شكوى. وقد سألته لوسيّا، يومًا: «هل تتألّم يا فرنشيسكو؟» فأجاب: «أجل، ولكنّي أحتمل كلّ شيءٍ حبًّا بربّنا، وبالسيّدة العذراء». وذات يومٍ، أعطى لوسيّا الحبل الذي كان يتمنطق به، قائلاً: «خذيه لئلاّ تلحظه أُمّي، فلم يعد بوسعي، بعد اليوم، أن أتمنطق به».

وقد شهد الطبيب الذي كان يعالجه: «كان، دائمًا، يتقبّل كلّ شيءٍ، باشّ الأسارير، بل فرحًا، فأخطأنا في تقدير خطورة علّته، في حين كانت حمّى ثقيلة الوطء، عنيدةٌ، مستمرَّةٌ، تهدّ، رويدًا رويدًا، وبلا رحمةٍ، بنيته التي أُصيبت بالهزال، ولم يكن يربطه بالأرض سوى خيطٍ رفيعٍ».

وأَقرّت والدته: «كان الصغير يتقبّل، بلا اعتراضٍ، جميع الأَدوية والأَطعمة، فلم أَعرف، يومًا، ما الذي كان يستسيغه، وما الذي كان ينفر منه. حتّى الأَدوية المرَّة كان يتناولها، فلا تبدو عليه أَيّة تكشيرةٍ... حتّى خُيّل إِلينا أَنّه لن يلبث أَن يتغلّب على علّته... وكان لا يني يردّد أَن لا فائدة من أَيّ علاجٍ، فالسيّدة العذراء لن تتأخّر في المجيء لاستصحابه إِلى السماء».

هاجسه المقيم كان تعزية قلبَي الربّ يسوع وأُمّه العذراء. وفي هذا السبيل كان يقدّم كلّ صلواته وآلامه. وقد جاء في مذكّرات الأُخت لوسيّا: «دخلت غرفته يومًا، فألفيته يضجّ بهجةً. فسألته: «هل تحسّنتَ حالاً؟»، فأَجاب: «كلاّ، لا بل إِنّي أَشعر أَنّ حالي تتفاقم سوءًا. ولكن لم يعد يفصلني عن المثول إِلى السماء سوى وقتٍ قصيرٍ، وهناك سأبذل كلّ جهودي في سبيل تعزية ربّنا يسوع والسيّدة العذراء. أُختي هياسنت ستُكثر من الصلاة من أَجل الخطأة، ومن أَجل الأَب الأَقدس، ومن أَجلك. أَمّا أَنت فستمكثين على الأَرض لأَنّ هذه هي رغبة السيّدة، فأَرجو أَن تنفّذي كلّ ما تطلبه منك».

وكان مبعث أَسفه الأَكبر، بعد ما حلّ به من وهنٍ، حرمانه فرصة التخشّع أَمام بيت القربان، وتعزية قلب يسوع المتواري فيه.

وقد أَقرّ الذين كانوا يعودونه، في مرضه، بأَنّ الانطباع الذي كان يعتريهم، لدى دخول غرفته، هو نفس الانطباع الذي كان يعتريهم لدى دخول كنيسة.

ستّة أَشهرٍ كانت كافيةً كي يقضي المرض على بنيته التي كانت، من قبل منيعةً، فبات من الوهَن بحيث، بعد أَن كان يتلو، كلّ يومٍ، ثمانية مسابح، غدا لا يقوى على الفراغ من تلاوة مسبحةٍ واحدةٍ. وسأل والديه استدعاء كاهنٍ يمنحه الزاد الأَخير، وفي الآن عينه، استدعى لوسيّا، وقال لها: «سأَعترف الآن، استعدادًا لتناولي جسد الربّ، فأَرجوك أَن تذكّريني بأَيّة خطيئةٍ قد سبق لي ارتكابها، واطلبي من أُختي هياسنت، أَيضًا، أَن تذكّرني بأَيّة خطيئةٍ ارتكبتها، وغابت عن ذاكرتي، كي يكون اعترافي كاملاً».

مساءَ ذلك اليوم، بدا مشرقًا، مشعًّا بهجةً، بعد أَن

اعترف، وبعد أن وعده الكاهن بمنحه المناولة صباح اليوم التالي. ورغم مرضه، رجا أُمّه ألاّ تعطيه طعامًا ولا دواءً، بعد منتصف الليل، كي يتناول وهو صائمٌ، كما كانت التعليمات الكنسيّة تقتضي، حينذاك.

وبزغ صباح الثالث من نيسان، وكان يومًا ربيعيًّا جميلاً. ولمّا سمع فرنشيسكو رنين الجرس المنبئ بوصول ربّ السماوات المختبئ في القربان المقدّس، حاول النهوض بجذعه، ولكنّ الوهن رماه، ثانيةً، على وسادته. وطمأنه الحاضرون الذين وافوا كي يشهدوا مناولته الأولى والأخيرة، أنّ بوسعه تلقّي الربّ وهو مستلقٍ. في هذه الأثناء كانت لوسيّا وهياسنت راكعتين عند سريره تصلّيان وتذرّفان الدموع.

بعد تلقّيه القربانة على لسانه الجافّ، لبث فرنشيسكو مغمض العينين، جامدًا، صامتًا؛ ثمّ كانت كلماته الأولى سؤالاً لأُمّه: «هل سيأتيني الكاهن، مرَّةً أخرى، بيسوع المتخفّي؟». وأجابت أُمّه: «لست أدري». فقد كان يساورها انطباعٌ موجعٌ بأنّ مناولته الأولى هي زاده الأخير إلى الأبديّة.

بدا فرنشيسكو في غاية السعادة، غير أنّ فكرة النأي عن رفيقتيه لوسيّا وهياسنت كانت تُدخل إلى نفسه غمًّا وكمدًا. وقد أَسرّ للوسيّا: «سأَفتقدك كثيرًا، في السماء»، ولكنّ لوسيّا هدّأت من روعه بقولها: «بالقرب من يسوع وأُمّه لن تفتقد أَحدًا».

عشيّة وفاته أَسرّ إلى لوسيّا بقوله: «أَنا في أَسوإ حالٍ، ولم يبقَ لي سوى وقتٍ قصيرٍ كي أَمثل إلى السماء...»، فأَجابته: «إِذن، لا تنسَ، في عليائك، أَن تمعن في الصلاة من أَجل الخطأة، ومن أَجل الأَب الأَقدس، ومن أَجلي، ومن أَجل هياسنت».

– «أَجل، لا أَحبَّ، لديّ، من تلبية طلبك. ولكن خيرٌ لك أَن تكلّفي هياسنت بهذه النوايا، فأَنا أَخشى أَن أَنساها، حالما أُقابل ربّنا. وسأَهتمّ، قبل كلّ شيءٍ، بمؤاساته».

تسارع تردّي حالته، يوم الخميس الواقع في الثالث من نيسان، فلم تعد معدته تتحمّل جرعات الحليب القليلة، بل حتّى ملاعق الماء التي كانت أُمّه وعرّابة عماده تبلّلان بها فمه

الغرفة التي توفّي فيها فرنشيسكو، في منزل ذويه

الجافّ، بين حينٍ وآخر. وكان يؤكّد لهما كلّما استوضحتا عن حاله:

«إنّي في أَفضل حالٍ، ولا أُعاني أَيّ أَلمٍ».

في الغداة، يوم الجمعة، في الرابع من نيسان، كانت كلّ الدلالات تشير إلى دنوّ أَجله. ومع حلول الليل استدعى أُمّه وقال لها: «آه! يا أُمّي، انظري... يا للنور البهيّ، هنا، قرب الباب!...». وبعد بضع دقائق، أَضاف: «الآن ما عدت أَراه...» وفي نحو الساعة العاشرة ليلاً، استنار محيّاه ببسمةٍ ملائكيّةٍ، لم تكدّرها أَيّة إِيماءة أَلمٍ، أَو دليل نزاعٍ، أَو أَيّة أَنّةٍ، وانطفأ بسلامٍ، طائرًا إِلى السماء، كي يلطو بين يدي الأُمّ السماويّة. ولم يكن، حينئذٍ، قد تخطّى الحادية عشرة.

سنةٌ ونصف السنة كانتا قد انصرمتا منذ الظهور الأَخير في «كوڤا دا إِيريا»، ولكن بفضل نِعَم الظهورات، وبفضل المسابح العديدة التي تلاها، تلبيةً لرغبة العذراء، وبفضل ساعات الخشوع الطويلة التي أَنفقها في خلوةٍ أَمام بيت القربان، مأخوذًا في الله، هائمًا فيه، ودائبًا على تعزية يسوع

المتخفّي، كان قد قطع شوطًا طويلاً على دروب القداسة المبكّرة. وكانت آلام المرض قد طهّرته، فأمسى جاهزًا للسماء، حيث واكبته السيّدة العذراء.

الخامس من نيسان كان يوم السبت الأوّل من ذلك الشهر، وفيه انطلق موكبٌ متواضعٌ اقتاد فرنشيسكو إلى مقبرة فاطمة، وكانت لوسيّا ضمن الموكب تذرّف دموعًا حرّى، فيما كانت هياسنت تبكي وحيدةً، في حجرتها، وقد حال مرضها دون مشاركتها في الجنازة. جنازةٌ بسيطةٌ، متواضعةٌ، على غرار حياته التي اتّسمت بالامّحاء.

في ١٣ آذار ١٩٥٢، نقل رفاته إلى كاتدرائيّة فاطمة، حيث ما زال يرقد بانتظار عرضه لتكريم الجماهير، بعد تطويبه الذي طالبت به الأُخت لوسيّا، وطائفةٌ واسعةٌ من المؤمنين الذين نالوا، بشفاعته، نعمًا جُلّى.

هياسنت: ضحيّة التكفير عن الخطأة

لقد ابتغى فرنشيسكو أَن يكون معزّي قلبَي يسوع ومريم. أَمّا شقيقته هياسنت فشاءت أَن تكون المتعاونة معهما. وقد أَوجزت الأُخت لوسيّا الفرق بينهما بقولها: «فيما كان هاجس هياسنت الوحيد هو ارتداد الخطأة وتوبتهم، وحماية النفوس من التردّي إِلى جهنّم، كان هاجس فرنشيسكو هو بثّ العزاء في قلبَي الربّ يسوع والسيّدة العذراء اللّذين تبيّن حزنهما الشديد».

كانت هياسنت كَلِفةً بتقديم التضحيات من أَجل ارتداد الخطأة، ولم تكن تفوّت سانحةً، في هذا السبيل. واتّفق أَن صدفت، يومًا، في زمن رعايتها الأَغنام مع أَخيها ولوسيّا، فتيَيْن يتسوّلان على الأَبواب، فأقنعت رفيقيها بالاستغناء عن زادهما والتبرّع به لهما، تضحيةً من أَجل ارتداد الخطاة.

وعندما اشتدّ بهم الجوع، أسكتوه بتناول البلّوط المرّ، وبقدر ما كانت مرارته شديدةً، كانت هياسنت تعدّ تضحيتها أجلّ قيمةً.

ومنذئذٍ بات المتسوّلان يترصّدان الرعاة الصغار على جنبات الطريق، وكانت هياسنت، حالما تلمحهما، تهرع لتقديم كامل زادهم اليوميّ، وهي تطفر فرحًا. وبعد أن فعلت ذلك، في يومٍ اشتدّ قيظه، استبدّ بالرعاة العطش عند الظهيرة، فاقترحت لوسيّا أن تستعير إبريق ماءٍ من قريةٍ قريبةٍ، ولمّا جاءت به أحجم فرنشيسكو وهياسنت عن الاستقاء منه، مؤثرَيْن تقديم عطشهما تضحيةً، من أجل ارتداد الخطأة. وسبّب العطش لهياسنت ألَمًا مبرِّحًا في رأسها، فما عادت تطيق نقيق الضفادع، ولا موسيقى الصراصير الرتيبة، فرجت لوسيّا أن تأمر الضفادع والصراصير جميعًا بالصمت. وحينئذٍ قال لها فرنشيسكو: «ألا تريدين أن تتألّمي من أجل ارتداد الخطأة؟». فشدّت رأسها بيديها كلتيهما، قائلةً: «بلى، أُريد».

تقول لوسيّا: «أرى أنّ هياسنت هي التي نالت من السيّدة

العذراء القسط الأَوفى من النِعَم والفضائل، والمعرفة المثلى للّه.... كانت هياسنت، دائمًا، متواضعةً، جادّةً، ودودةً، وكان ذلك شاهدًا على حضور اللّه في كلّ أَعمالها. وهذه أُمورٌ يتميّز بها، عادةً، المتقدّمون في السنّ، والمتمرّسون بالفضيلة. لم أَشهد لديها، يومًا، الخفّة المفرطة، ولا كَلَف الأَولاد بالزينة واللهو. هكذا غدت بعد الظهورات. أَمّا قبلها، فكانت سبّاقةً إِلى الاندفاع لإِرضاء النزوات.

«كانت، إِن تلفّظ أَمامها ولدٌ أَو كهلٌ بأَقوالٍ نابيةٍ، تؤنّبه، قائلةً: «لا تقل هكذا، فهذه إِهانةٌ للّه، وحسْبُ ربّنا ما يُلحَق به من إِهاناتٍ جمّةٍ».

«في مرضها، كانت تُدهِش باستقرارها الروحيّ، وسجوّ نفسها، وامتناعها عن كلّ شكوى، وكلّ اقتضاء...

«كانت الجارات يؤنسنَ راحةً في العمل قرب سريرها، وكان جاذبٌ سرّيٌّ يشدّهنَّ إِليها. فقد كان ينبعث منها شيءٌ فائق الطبيعة».

ومع أَنّ هياسنت كانت صغرى الرؤاة الثلاثة، نعمت بأَوثق

حميميّةٍ مع العذراء، وحتّى بعد أَن انتهت سلسلة الظهورات الجماعيّة العلنيّة، لم تكفّ العذراء عن الظهور لها، وعن تبليغها إِلهاماتٍ خلاصيّةً.

وعندما أَلّمت بها وبأَخيها فرنشيسكو، الحمّى الإِسبانيّة، في شهر تشرين الأَوّل ١٩١٨، كانت تلك، لكليهما، بداية آلامٍ قادتهما إِلى التضحية القصوى».

تروي لوسيّا، في مذكّراتها، أَنّ هياسنت استدعتها على عجلٍ، في مطلع عام ١٩١٩، وباحت لها بالنجوى التالية: «زارتني السيّدة العذراء، وقالت لي إِنّها ستقدم، عمّا قريب، كي تواكب فرنشيسكو إِلى السماء، وسألتني هل أَنا راغبةٌ في أَن يرتدّ المزيد من الخطأة، فأَجبت بالإِيجاب. حينئذٍ أَنبأتني بأَنّني سأُقتاد إِلى مستشفًى، حيث سأعاني آلامًا جمّةً، من أَجل ارتداد الخطأة، وتكفيرًا عن الخطايا المرتكبة بحقّ قلب مريم الطاهر، وحبًّا بيسوع. وسألتُها هل سترافقني لوسيّا، فأجابت بالنفي. وهذا ما سيشقّ عليّ أَكثر من أَيّ شيءٍ. وأَنبأتني بأنّ أُمّي هي التي ستقتادني إِلى المستشفى، وبعدئذٍ سأبقى وحيدةً».

وقد أَوضحت هياسنت، لاحقًا: «تريد العذراء أَن أُقيم في مشفيين، ولكن ليس بغية التعافي، بل من أَجل المزيد من الأَلم، حبًّا بربّنا، ومن أَجل الخطأة».

لقد أَدركت هياسنت، باكرًا، وبيقينٍ راسخٍ، أَنّه كلّما اشتدّت آلامها، تكاثر عدد النفوس التي ستسهم في انتزاعها من العذابات الأَبديّة. وقد وافقت، طوعًا، على الأَلم الذي لم يخطر لها ببالٍ: أَن تتألّم وتموت، وحيدةً، بعيدةً عن أَبويها، وعن لوسيّا، نجيّتها الوحيدة، وصديقتها الحميمة، التي كان حضورها هو سندها الوحيد المتبقّي.

غالبًا ما كانت تشدّ الصليب على صدرها، وتقبّله باندفاعٍ قائلةً: «يا يسوعي أُحبّك، وأُريد أن أَتألّم كثيرًا، حبًّا بك». وأَحيانًا كانت تقول له: «يا يسوع، بوسعك، الآن، رَدَّ عددٍ كبيرٍ من الخطأة، لأَنّ تضحيتي هذه جسيمةٌ».

كانت هياسنت تخفي آلامها عن أُمّها لكيلا تضاعف حزنها. وعندما كانت ترى أُمّها تبكي، وهي ترطّب جبينها

المستعر، كانت تواسيها بقولها: «لا تبكي، يا أُمّاه! فأَنا ماضيةٌ إِلى السماء، وهناك سأُصلّي كثيرًا من أَجلك».

للوسيّا وحدها كانت تصرّح عن مشاعرها، ولا تخفي عنها شيئًا. وقد أَسرّت لها، يومًا: «إِنّي أُعاني آلامًا مضنيةً في صدري... وأُريد احتمالها إِكرامًا لربّنا، وتكفيرًا عن الخطايا المرتكبة بحقّ قلب مريم الطاهر، ومن أَجل الأَب الأَقدس، ومن أَجل ارتداد الخطأة».

هذه الآلام كانت ناتجةً عن التهابٍ رئويٍّ قيحيٍّ، وكانت تحتملها بصبرٍ واستسلامٍ عجيبين، بل بفرحٍ مدهشٍ.

وأَكثر ما شقّ عليها، في أَثناء مكوثها في المستشفى، هو تعذّر نيلها المناولة.

قُبَيْل وفاة شقيقها فرنشيسكو أَوصته: «حَيِّ، باسمي، ربّنا والسيّدة العذراء. وقل لهما إِنّني سأحتمل كلّ ما يشاءان، من أَجل ارتداد الخطأة، وتعويضًا عمّا يُلحق بقلب مريم الطاهر من إِهاناتٍ».

وعقب وفاة أَخيها تبيّن للأَطبّاء، تعذُّرُ تزويدها بالعلاج

الضروريّ في قرية أَلجيستل، فنصحوا ذويها بإِيداعها مستشفًى، في مدينة «ڤيلاّ نوڤا دي أوريم». وتحقّقت نبوءة العذراء الأولى.

كانت آلامها مضنيةً، وتتفاقم يومًا فيومًا. وقد ضاعفتها وحدتها القاسية. وحلَّ وقتٌ عجز معه ذووها عن احتمال نفقات استشفائها، فأعادوها إِلى المنزل، وفي جنبها قرحٌ متقيّحٌ، يتعيّن تطهيره وتضميده، كلّ يومٍ. ولم تكن إِمكانيّات هذه الرعاية متوفّرةً في قريتها، فازداد وضعها سوءًا. ومع ذلك، حاولت ما استطاعت، المواظبة على الصلاة، وهي راكعةٌ، وجبينها يلامس الأَرض، إِلى أَن حالت دون استمرارها في مواصلة هذه الممارسة، قواها التي أَمعنت في الوهن والخوَر.

ومع كلّ آلامها، ما انفكّ سيل الفضوليّين والمحقّقين، الذين يحاصرونها بأَسئلتهم واستجواباتهم، يتدفّق عليها. ولطالما شكت: «ليت بوسعي أَن أَختبئ عنهم، كما كنت أَفعل سابقًا. ولكنّني أُقدّم هذا الصليب، أَيضًا، ليسوع». وكان

جميع الذين يقابلونها يعودون دهشين بسكونها، واحتمالها البطوليّ، الصامت، وإمساكها عن أيّة زفرة شكوى.

وفي شهر كانون الأوّل ١٩١٩، أسرّت للوسيّا أنّ العذراء زارتها ثانيةً، وأنبأتها بصلبانٍ جديدةٍ، إذ عليها أن تُنقَل إلى مشفًى آخر في ليشبونة، حيث لن ترى أحدًا من ذويها وأقربائها، وحيث ستعاني آلامًا جمّةً قبل أن تقضي نحبها، وحيدةً. ولكن عليها ألاّ تخاف، فالعذراء ستوافي كي تواكبها إلى السماء.

وكان يؤرّقها أنّها ستغادر الدنيا قبل أن تتناول يسوع المتواري في القربان الأقدس. ولكم تمنّت أن تناولها العذراء نفسها! وسألتها لوسيّا، يومًا: «ماذا ستفعلين في السماء؟» فأجابت: «سأستغرق في حبّ يسوع، وقلب مريم الطاهر. سأُصلّي من أجلك، ومن أجل الخطأة، ومن أجل الأب الأقدس، ومن أجل والديّ وإخوتي، ومن أجل جميع الذين طلبوا منّي أن أتضرّع من أجلهم».

في منتصف شهر كانون الثاني ١٩٢٠، جيء بهياسنت

إلى ميتمٍ في ليشبونة، فاطمأنّت إلى الفتيات المشرفات على إدارته، اللواتي كنَّ يَسُقنَ فيه حياة الراهبات. وقد نالت لها الأُمّ الرئيسة إذنًا بحضور القدّاس والتناول كلّ يومٍ. وأنعمت عليها العذراء بزيارةٍ أُخرى، أطلعتها، في أثنائها، على يوم وفاتها وساعته.

في الثاني من شباط ١٩٢٠ أُودعت في مشفى «دونا إستفانيا»، وبعد ثلاثة أيّامٍ، اضطرّت والدتها إلى العودة إلى المنزل، فودّعتها الوداع الأخير، وغرقت الفتاة في وحدةٍ تامّةٍ.

وأُخضعت لسلسلةٍ من العمليّات الخطيرة، استؤصل، في واحدةٍ منها، ضلعان من ضلوعها. وكانت العمليّات بالغة الإيلام، إذ تعذّر تخديرها تخديرًا كاملاً، بسبب وهنها البالغ. وكانت، مع صغر سنّها، موضع إدهاشٍ للأطبّاء والممرّضات، بصبرها، واحتمالها الآلام بلا تشكٍّ، وبتميّزها عن جميع المرضى الآخرين، وقد توسّم فيها الجميع قدّيسةً صغيرةً. وكانت تردّد، على مسمع الأطبّاء والممرّضين الذين

جثمان هياسنت، وقد بدا وجهها سليمًا عام ١٩٣٥
وقد انقضى على وفاتها ١٥ عامًا

يحاولون مؤاساتها: «على جميع البشر أَن يتألّموا، إِن هم راموا الشخوص إِلى السماء!».

ورئفت بها الأُمّ السماويّة، فقصّرت فترة محنتها. ففي مساء العشرين من شهر شباط ١٩٢٠، التمست هياسنت منحها الزاد الأَخير. وجيء بكاهنٍ استمع إِلى اعترافها، ولكنّه لم يرَ حاجةً إِلى منحها الزاد الأَخير، حينئذٍ، بل وعدها به في صباح اليوم التالي، غير حافلٍ بإِلحاحها، وهي العالمة بساعة موتها، بدقّةٍ. وقد انطفأت بهدوءٍ، في الساعة العاشرة والنصف من تلك الليلة، في غياب جميع ذويها ومعارفها.

وتقاطر المؤمنون بظهورات فاطمة إِلى الكنيسة التي سُجّي فيه جثمانها، كي يباركوا المسابح والصور التي أَتوا بها، بملامسة جثمانها وثيابها. وشهد المشرف على إِجراءات دفنها: «ما زلت أَذكر ذلك الملاك الصغير. كانت تبدو، في نعشها، حيّةً، وقد اصطبغت شفتاها ووجنتاها بلونٍ زهريٍّ، جميلٍ. لقد شهدتُ أَمواتًا كثيرين، صغارًا وكبارًا، ولكنّني لم أَشهد

لها نظيرًا... العرف الطيّب الذي كان ينبعث من جسدها، لا تفسير له طبيعيًّا. فبعد انقضاء ثلاثة أيّامٍ ونصف اليوم على وفاتها، كان جثمانها يفوح بشذى باقات زهورٍ متنوّعةٍ»، مع أَن العلّة التي أَدّت إِلى وفاتها، كانت قد أَحدثت قروحًا تنزّ قيحًا.

ويوم نقل رفاتها إِلى مقبرة فاطمة، في ١٢ أَيلول ١٩٣٥، دهش الحاضرون، عند فتح النعش، برؤية وجهها ما برح سليمًا. وتكرّر ذلك المشهد في الأَوّل من أَيّار ١٩٥١، بمناسبة نقل الرفات إِلى الكاتدرائيّة، فإِذ بوجه الرائية الصغيرة، ما زال على طبيعته، وسلامة ملامحه، ولم يطله فسادٌ.

وقد جرت معجزاتٌ كثيرةٌ بشفاعتها، وشفاعة أَخيها فرنشيسكو.

لوسيّا في مدرسة الأَلم

كان عام ١٩١٩ شديد القسوة على لوسيّا، وقد أَغرقتها أَحداثه في وحدةٍ موجعةٍ. ففي الرابع من نيسان غادر فرنشيسكو، ابن عمّتها ورفيق الظهورات، إِلى السماء. وفي ٣١ تمّوز، توفّي والدها، وكان، هو وحده، في أُسرتها، يساندها، ويقف إِلى جانبها. وعلى إِثر وفاته، اعتلّت والدتها، وكادت تلقى حتفها. فحمّلتها أَخواتها مسؤوليّة اعتلالها، ووزْرَ كلّ مصائب الأُسرة. وفي ضربٍ من التحدّي، قلنَ لها: «إِن كان صحيحًا أَنّ العذراء ظهرت لك، فاسأليها شفاء والدتك». وفي الحال جرت لوسيّا إِلى «كوڤا دا إِيريا»، وهي تتلو المسبحة، وصلّت بحرارةٍ. ولمّا عادت إِلى البيت، كانت أَمّها قد تحسّنت حالاً، وبعد أَيّامٍ معدوداتٍ، استأنفت أَعمال المنزل المعتادة.

لوسيّا، في الثالثة عشرة من عمرها، حادّةً على والدها

وقد ارتأى كاهن رعيّة فاطمة، والأُسقف الذي تولّى رعاية الأبرشيّة حديثًا، إيداع لوسيّا في مدرسةٍ داخليّةٍ، بغية حمايتها من الفضوليّين الدائبين على مطاردتها، وتوفير فرصة تعليمٍ وتثقيفٍ لها. ومُنحت الفتاة مهلةً قصيرةً كي تعدّ لنفسها جهازًا شخصيًّا بسيطًا، وكي تودّع مرابع صباها، والأماكن التي تتبوّأ في نفسها موقعًا أثيرًا، على أن يبقى عنوانها الجديد مكتومًا. وقد ارتأى الأُسقف إيكالها إلى عناية الراهبات الدوروتيّات، في مدينة ڤيلار القريبة من پورتو.

وفي هذه الأثناء، توفّيت، أيضًا، صديقتها الحميمة، ونجيّتها الوحيدة، ابنة عمّتها هياسنت، وكان لوفاتها وقعٌ أليم على نفسها.

في الساعة الثانية من فجر السادس عشر من حزيران ١٩٢١، ودّعت، إذن، لوسيّا منزل ذويها، ومسقط رأسها، ويمّمت شطر مقرّها الجديد تواكبها أُمّها، ومرافقٌ. وقد عرَّجت، في طريقها، على «كوڤا دا إيريا»، حيث كان قد أُنعم عليها برؤية العذراء، وتلت فيه مسبحةً، بمثابة وداعٍ. وقد

اعترفت، لاحقًا، أنّ العذراء كرّمتها بظهورٍ آخر، لدى مغادرتها موقع الظهورات، وزوّدتها بقوّةٍ تمكّنها من احتمال الصلبان التي تنتظرها.

في محطّة سكّة حديد ليرا، ودّعت أُمّها، وانطلق بها القطار، حاملاً قلبًا غارقًا في محيطٍ من الأسى، وذكرياتٍ يتعذّر نسيانها.

منذ وصولها إلى المعهد الذي اختير لها، تُليت عليها تعليماتٌ دقيقةٌ: ألاّ تبوح لأحدٍ باسمها الحقيقيّ، ولا بمنشئها، فإن سُئلت عنهما، فلتُجب أنّ اسمها هو «ماريّا داس دوريس» (ماريّا الآلام)، ويا له من اسمٍ حافلٍ بالرموز! وأنّها قادمةٌ من جوار ليشبونة. وعليها أن تكتم كلّ ما جرى، في فاطمة، من ظهوراتٍ، وأن تمتنع عن مرافقة الفتيات الأُخريات، في رحلاتهنّ ونزهاتهنّ خارج المعهد.

كان عليها أن تمحو كلّ ماضيها، وأن تكفّنه بصمتٍ مطبقٍ. وقد أسهم في فرض هذا الصمت موقفُ الراهبة رئيسة المعهد التي ارتضت استقبال لوسيّا، فقط خضوعًا لأمر الأُسقف،

في حين كانت غير مؤمنةٍ بظهورات فاطمة، وظلّت مقيمةً على تجاهلها، طويلاً.

وكانت زميلاتها في المعهد يسخرنَ من جهلها، ومن سلوكها القرويّ. غير أنّ لوسيّا كانت تتمتّع بذكاءٍ متوقّدٍ، ساهم، سريعًا، في صقل مواهبها الفطريّة، التي تجلّت من خلال مذكّراتها، التي بلّغت، بها، رسائل السماء. كما أنّها تميّزت بمهارةٍ يدويّةٍ أهّلتها للتفوّق في فنّ التطريز. بيد أنّها، مع احتلالها مراتب متقدّمةً في دراستها، لم تتقدّم لأيّ امتحانٍ رسميٍّ، تفاديًا للإفصاح عن هويّتها.

وإلى جانب نجاحاتها الثقافيّة، تقدّمت أشواطًا واسعةً في مجال السلوك المثاليّ، وفي ميدان الفضائل، ما أكره رئيسة المعهد على تبديل نظرتها إليها وإلى ظهورات فاطمة، إذ ما انفكّت الراهبات المعلّمات والمشرفات يشهدنَ بطاعتها النموذجيّة، التي لا تعهد تردّدًا أو تململاً، وبإيثارها الاضطلاع بأصعب المهمّات تاركةً المهمّات المريحة للأُخريات، وببساطتها الرائعة، وبتقواها الملائكيّة. كلّ شيءٍ

لوسيّا، في السابعة عشرة، مرتديةً زيّ معهد ڤيلار

في سلوكها كان ينمّ عن نِعَمٍ وكراماتٍ فريدةٍ أَسبغتها عليها السماء.

كافأتها العذراء بظهورٍ آخر في ٢٦ آب ١٩٢٣، يوم انتسابها إِلى أَخويّة «بنات مريم»، وأَكّدت لها قبولها بأَن تكون لها أُمًّا سماويّةً، بعد أَن هجرت أُمّها الأَرضيّة، حبًّا بها. وبهذه المناسبة، أَوصتها العذراء، مرَّةً أُخرى، بالصلاة والتضحية من أَجل الخطأة، قائلةً إِنّ كثيرين يهلكون، بسبب غياب من يصلّي ويضحّي من أَجلهم.

في الثالث من أَيّار ١٩٢٢ افتُتح التحقيق الكنسيّ بشأن ظهورات فاطمة، وبعد سنتين وافى المحقّقون، في سرّيّةٍ تامّةٍ، إِلى معهد ڤيلار لاستجواب لوسيّا. وقد أَجابت على السؤال الحاسم: «هل أَنت متأكّدةٌ بأَنّ السيّدة العذراء قد ظهرت لكِ حقًّا؟» فأَجابت بحزمٍ وثباتٍ: «أَنا متيقّنةٌ من أَنّني رأيتها، ومن أَنّني لم أُخطئ في ذلك، ولن يقوى أَحدٌ على جعلي أَقول خلاف ذلك، حتّى ولو أَدّى موقفي هذا إِلى موتي».

غير أَنّ لوسيّا ظلّت حريصةً على التكتّم بشأن أَسرارها،

وبشأن الظهورات، ما لم تجبرها مهمّتها، بصفتها رسولة السماء، على البوح بما تستطيع البوح به.

بين عامي ١٩٢٣و ١٩٢٤، في غمرة مسيرة تطويب القدّيسة تيريز الطفل يسوع، راودتها الرغبة في الانضواء إلى الرهبنة الكرمليّة. إلاّ أنّ مرشديها الروحيّين نصحوها بالانتساب إلى جمعيّة الراهبات الدوروتيّات اللواتي كنّ يشرفنَ على المعهد الذي كانت مقيمةً فيه، واللواتي أَحطنها بكثيرٍ من المحبّة والرعاية. بيد أَنّ حلم حياة الكرمل، حياة الخلوة، والتأمّل، والصلاة، ظلّ غافيًا في صدرها، حتّى حان وقت تحقيقه، بعد سنواتٍ.

في ٢٤ تشرين الأوّل من ١٩٢٥، قدمت إلى مدينة «توي» (Tuy) الإسبانيّة، حيث مركز ابتداء الراهبات الدوروتيّات. وكانت، آنذاك، في الثامنة عشرة من عمرها. وقد استهلّت فترة الابتداء في ٢ تشرين الأَوّل ١٩٢٦، وبعد سنتين أَبرزت نذورها الرهبانيّة. ثمّ نُقِلت إلى مركز الجمعيّة في «پونتيڤيدرا» (Pontevedra) حيث مكثت حتّى عام ١٩٣٧، وحيث

لوسيّا المبتدئة في دير «توي» – في
الحادية والعشرين من عمرها

تواترت ظهورات العذراء لها، مؤكّدةً لها مهمّتها المتمثّلة في مساعدة العالم على معرفة العذراء وحبّها، وفي تكريم قلبها الطاهر، ونشر تقليد المناولة التكفيريّة عن الخطأة، في يوم السبت الأوّل من كلّ شهرٍ، وعلى خمسة أشهرٍ متواليةٍ.

ظهورات في «توي» و«پونتيڤيدرا»

مساء يوم الخميس، الواقع في ١٠ كانون الأوّل ١٩٢٥، زارتها العذراء في صومعتها في دير «توي». وظهر إلى جانبها يسوع الطفل، محمولاً على غمامةٍ. وضعت العذراء يدها على كتفها، وأرتها، محمولاً في يدها الأُخرى، قلبًا محاطًا بالأَشواك؛ وقال لها الطفل الإلهيّ: «ارأفي بقلب أُمّك كلّيّة القداسة، المحاط بأشواكٍ يغرسها فيه بشرٌ ناكرو الجميل، في كلّ لحظةٍ، وليس من يقوم بعملٍ تكفيريٍّ، من أَجل انتزاعها منه». ثمّ قالت لها العذراء: «انظري، يا ابنتي، قلبي المحاط بأَشواكٍ يغرسها فيه، كلّ لحظةٍ، بشرٌ عاقّون، بتجديفهم وجحودهم. فاحرصي، أقلّه أَنتِ، على مؤاساتي، وبلّغي أَنّ جميع الذين، على امتداد خمسة أَشهرٍ، وفي السبت الأَوّل من كلّ شهرٍ، يعترفون ويتناولون، ويتلون المسبحة، ويمكثون

ظهور العذراء مع يسوع الطفل للأخت لوسيّا في ١٩٢٥/١٢/١٠

برفقتي، مدى خمس عشرة دقيقةً، متأمّلين في أَسرار الورديّة الخمسة عشر، بنيّة التكفير، أَعدهم بمساعدتهم، في ساعة موتهم، وبمنحهم النعمة اللازمة لخلاص نفوسهم».

ولم تضنّ الأُخت لوسيّا بأيّ مسعًى، كي تبلّغ طلب العذراء هذا وتعمّمه. فأَطلعت عليه رئيستها التي أَبدت أَفضل استعدادٍ للعمل به، كما بلّغت معرّفها في الدير الذي نصحها بتدوين هذه الرسالة وبحفظها، فقد يُحتاج إِليها، لاحقًا. وبلّغت، أَيضًا، معرّفها السابق في معهد ڤيلار، الذي أَبدى تحفّظًا، ونصح بالتريّث. ولكنّها راسلته، ثانيةً، في شهر شباط التالي. وهاكم نصّ رسالتها:

«أَبتِ الجزيل الوقار،

«باحترامٍ عميقٍ، أَشكر لكم الرسالة اللطيفة التي تكرّمتم بإِرسالها لي. عندما قرأتها، وأَدركت أَنّه لم يحنْ، بعدُ، أَوان تلبية رغبات السيّدة العذراء كلّية القداسة، انتابني شيءٌ من الحزن. ولكن، سرعان ما تبيّنت أَنّ رغبة العذراء كلّية القداسة تكمن في إِطاعتكم، فسكن روعي. وفي الغداة، عندما

تلقّيت يسوع في المناولة، تلوت له رسالتكم، وقلت له: «يا يسوعي، بنعمتك، وبالصلاة، وبالتضحية والثقة، أَنا متأهّبةٌ للقيام بكلّ ما تسمح لي الطاعة القيام به، وبكلّ ما ستلهمني. وعليك، أَنتَ، أَن تحقّق الباقي».

«ويوم ١٥ شباط، كنت مأخوذةً بعملي، وقد غاب عن خاطري حدث العاشر من كانون الأَوّل. وفيما كنت أُفرغ دلو نفاياتٍ خارج الحديقة، في مكانٍ كنت، لبضعة أَشهرٍ خَلَتْ، قد التقيت فيه ولدًا، فاستوضحته هل هو يعرف صلاة «السلام عليك يا مريم»، وأَجابني بالإِيجاب، فطلبت منه أَن يتلوها على مسمعي، ولمّا لحظت تردّده، تلوتها معه، ثلاثًا، ثمّ دعوته إِلى تلاوتها بمفرده، فالتزم الصمت، وكأَنّه غير قادرٍ على تلاوتها بمفرده. فسألته إِن هو كان يعرف كنيسة القدّيسة مريم، فأَجاب أَنّه يعرفها، فأَوعزت إِليه أَن يقصدها كلّ يومٍ، وأَن يتلو فيها الصلاة التالية: «يا أُمّي السماويّة، أَعطيني يسوع الطفل». علّمته هذا الدعاء، وانصرفتُ. وفي الخامس عشر من هذا الشهر الجاري، إِذ كنت أُفرغ دلو القمامة، التقيت ولدًا بدا لي أَنّه هو ذاته الذي كنت قد

التقيته سابقًا، فسألته: «هل التمست يسوع الطفل من أُمّنا السماويّة؟»، فالتفت نحوي، وقال: «وأنتِ، هل أعلنتِ للعالم ما طلبته منك الأُمّ السماويّة؟». وعندها تحوّل إلى ولدٍ متألّقٍ، تعرَّفت فيه يسوع، فقلت له: «يا يسوعي، أنت تعلم جيّدًا ما قاله لي معرّفي في الرسالة التي تلوتها لك. فقد قال إنّ على هذه الرؤيا أن تتكرّر، وأن تجري أحداثٌ تساعد على تصديقها، وأنّ الأُمّ الرئيسة بمفردها، عاجزةٌ عن نشر الممارسة التقويّة المطلوبة» فأجاب:

– «صحيحٌ أنّ الأُمّ الرئيسة لا تستطيع، بمفردها، شيئًا، ولكنّها، بنعمتي، تستطيع كلّ شيءٍ. يكفي أن يمنحك معرّفك موافقته، وأن تعلن رئيستك ذلك، كي يصدّق الناس، حتّى وإن جهلوا لمن بُلّغت الرسالة».

– «ولكنّ معرّفي قال، في رسالته، إنّ هذه الممارسة التقويّة ليست مجهولةً في العالم، فكثيرون هم الذين يتناولونك يوم السبت الأوّل من كلّ شهرٍ، إكرامًا لسيّدتنا العذراء، ولأسرار الورديّة الخمسة عشر».

– «يا ابنتي، صحيحٌ أَنّ نفوسًا كثيرةً تبدأ هذه الممارسة، ولكنّ قليلين يمضون بها إِلى آخر شوطها. والذين يواظبون إِنّما يفعلون ذلك، بُغيةَ الظفر بالنعم الموعودة. إِنّ النفوس التي تلتزم بهذه الممارسة بحرارةٍ، يوم السبت الأَوّل من الشهر، وعلى امتداد خمسة أَشهرٍ متتاليةٍ، بغيةَ التكفير عن الخطايا المسيئة إِلى قلب الأُمّ السماويّة، تروق لي أَكثر من تلك التي تمارسها، مدى خمسة عشر شهرًا، بفتورٍ ولامبالاةٍ».

– «يا يسوعي إِنّ نفوسًا كثيرةً تلقى صعوبةً في الاعتراف يوم السبت. فهل تتقبّل الاعتراف في غضون عشرة أَيّامٍ تلي أَو تسبق يوم السبت الأَوّل من الشهر؟».

– «أَجل، بل في غضون أَكثر من عشرة أَيّامٍ، على أَن تكون النفوس في حالة نعمةٍ، يوم السبت الأَوّل من الشهر، عندما تتلقّاني، وعلى أَن تحدوها، ساعة اعترافها، نيّة مؤاساة قلب مريم الأَقدس».

– «يا يسوعي، وماذا عن الذين ينسون التعبير عن هذه النيّة؟».

– «بوسعهم التعبير عنها، بمناسبة الاعتراف التالي، وفي أوّل فرصة اعترافٍ تسنح لهم».

«وفي الحال توارى يسوع، قبل أن أَطّلع على رغبات السماء الأُخرى. أمّا رغبتي، فهي أن تلتهب النفوس بشعلة الحبّ الإلهيّ، وأن تسهم فعلاً، بفضل هذا الحبّ، في مواساة قلب مريم الأقدس. إنّي راغبةٌ، حقًّا، في مواساة قلب الأُمّ السماويّة، بتحمّلي آلامًا جمّةً، حبًّا بها».

وعدُ العذراء هذا بمنح كلّ النعم المؤدّية إلى الخلاص الأبديّ جميع الذين يواظبون على هذه الممارسة، تدلّ على حبّها اللامحدود الذي يكافئ الزهيد بالكثير، وعلى إيثار الثالوث الأقدس للسيّدة العذراء، وحرصه على نشر تكريمها في العالم.

وقد طلب معرّف الأُخت لوسيّا منها أن تسأل الربّ عن سبب تحديد عدد أيّام السبت الأولى من كلّ شهرٍ بخمسةٍ. وجاءها التفسير، في أثناء سهرة سجود ليلة ٢٩/٣٠ أيّار ١٩٣٠، على الوجه التالي:

«السبب بسيطٌ. فهناك خمسة ضروبٍ من الإهانات والتجديف المرتكَبة بحقّ قلب مريم الطاهر، المنزّه من كلّ لوثةٍ، وهي:

١ – التجديف بحقّ عقيدة الحبل بها بلا دنسٍ.

٢ – التجديف بحقّ بتوليّتها.

٣ – التجديف بحقّ أُمومتها الإلهيّة، ورفض الاعتراف بها، أُمًّا للبشر.

٤ – تجديف الذين يسعون إلى الدسّ، علنًا، في قلوب الصغار، مشاعر اللامبالاة، أَو الازدراء، بل حتّى البغض حيال هذه الأُمّ الطاهرة.

٥ – الإهانات المباشرة التي يلحقها بعضهم بصُوَرِها المقدّسة.

وفي هذا، الدليلُ على أَنّ الذين ينكرون جهارًا، بوعيٍ وتصميمٍ، امتيازات العذراء مريم، يرتكبون بحقّها أَبشع ضروب التجديف. فقلب مريم الطاهر هو معبدٌ للروح

القدس، «ومن جدّف على الروح القدس لا يُغفر له، لا في هذا الدهر، ولا في الدهر الآتي» (متّى١٢: ٣١-٣٢) ولذلك، رأفةً بالخطأة، طالبت العذراء، وطالب ابنها، بهذه الممارسة التكفيريّة، كي يصفح الربّ عمّن يجرحون قلب أُمّه.

وقد سعت الأُخت لوسيّا، بجميع الوسائل المتاحة لها، إلى تعميم هذه الممارسة الخلاصيّة، فتعميم تكريم قلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ هو الوسيلة التي طلبتها العذراء، من أَجل إِنقاذ الخطأة من عقاب جهنّم، وتجنيب العالم ويلات الحروب والأَضاليل، وتجنيب الكنيسة بلايا الاضطهادات.

* * * * *

ارتدت لوسيّا الثوب الرهبانيّ في ٢ تشرين الأَوّل ١٩٢٦، وأَبرزت نذورها الأولى في ٣ تشرين الأَوّل ١٩٢٨. وخلال عام ١٩٢٩ تابعت الراهبة المتواضعة التي كانت رفيقاتها يجهلنَ هويّتها الحقيقيّة، وكونها رائية فاطمة، ورسولة العذراء، في الخفية، جهدها لتحقيق الرسالة الموكلة إِليها،

والدعوة إلى التكريس الكامل لقلبَي يسوع ومريم. وتتّضح استعداداتها النفسيّة آنذاك، من خلال رسالةٍ وجّهتها إلى الأُخت «كروز» بتاريخ ٢ أيّار ١٩٢٩، جاء فيها:

«فلنهب قلبنا، بكلّ عواطفه ورغباته، لربّنا الحبيب، ولقلب أُمّنا كلّية القداسة، المنزّهة من كلّ لوثةٍ. وسنشعر، حينئذٍ، بمفعول الحبّ الإلهيّ الذي سيحرقنا، بواسطة التضحية. ولا نُحسّ بحريقه، لأنّ الحبّ يلطّف كلّ شيءٍ».

كانت الأُخت لوسيّا، إذن، متأهّبةً لتلقّي رسالةٍ خطيرةٍ من السماء. ولنسمعها تروي ما حدث لها في ١٣حزيران١٩٢٩:

«كنت قد طلبتُ ونلتُ إذنًا بقضاء ساعة سجودٍ، بين الحادية عشرة ومنتصف الليل من ليلة الخميس/ الجمعة من كلّ أُسبوعٍ. وفي إحدى الليالي، كنت وحيدةً، راكعةً وسط المصلّى، أتلو، وأنا ساجدةٌ، صلوات الملاك.

«ولمّا نال منّي التعب، نهضتُ وتابعتُ الصلاة، باسطةً ذراعيَّ على شكل صليبٍ. الضوء الوحيد الذي كان ينير المكان، كان مصباح الهيكل. وبغتةً، استضاء المعبد كلّه بنورٍ

فائق الطبيعة، وظهر على الهيكل صليبٌ من نورٍ، يرقى حتّى السقف.

«ووسط نورٍ أَشدّ سطوعًا، كان يُشاهَد على الجزء العلويّ من الصليب شكل رجلٍ، ظهر جسده حتّى وسطه، وعلى صدره كانت تجثم حمامةٌ، مضيئةٌ، هي أَيضًا. وكان يُشاهَد جسم رجلٍ آخر، مثبّتًا بمسامير على الصليب. وقليلاً تحت قدمي المصلوب، كانت تُشاهَد كأسٌ وقربانةٌ معلّقتان في الهواء. وكانت تنثال على القربانة بضع قطرات دمٍ، كانت تترقرق على وجنتَي المصلوب، وتنساب، أَيضًا، من جرحٍ في صدره. هذه القطرات كانت تنساب فوق القربانة، وتتساقط في الكأس.

«تحت ذراع المصلوب اليمنى، كانت تقف سيّدتنا العذراء (سيّدة فاطمة)، وقلبها الطاهر في يدها اليُسرى، بلا سيفٍ ولا ورودٍ، ولكن يحيق به إِكليلٌ من شوكٍ ولهبٍ...

«وتحت ذراع المصلوب اليُسرى، كانت حروفٌ كبيرةٌ، ولكأنّها مدوّنةٌ بماء كريستال منسابٍ فوق الهيكل. وكانت

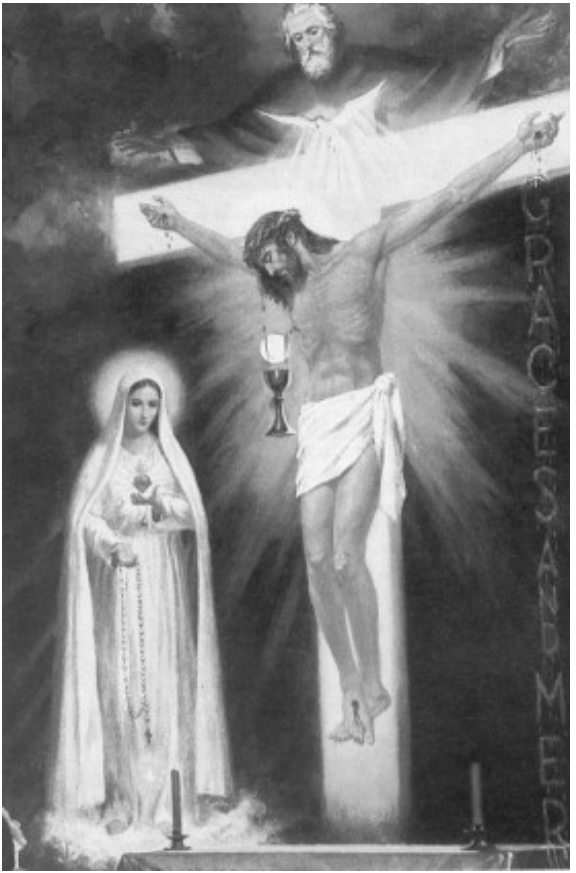

ظهور الثالوث الأقدس والعذراء، في دير «توي»

هذه الحروف تؤلّف كلمتَي: «نعمة ورحمة». وأَدركتُ أَنّي كنتُ أُعطى رؤية سرّ الثالوث الأَقدس، وأَتلقّى، عن هذا السرّ، أَسرارًا لا يحقّ لي إِفشاؤها.

«ثمّ قالت لي السيّدة العذراء: «لقد حان الأَوان، كي يطلب اللّه من الأَب الأَقدس، بالاتّحاد مع جميع أَساقفة العالم، تكريس روسيّا لقلبي الطاهر. فاللّه يعد بإِنقاذ روسيّا بهذه الوسيلة. ما أَكثر الخطايا التي تدينها عدالة اللّه، لأَنّها خطايا مرتكبةٌ بحقّي! وها إِنّي جئتُ أَطلب التعويض عنها. فضحّي بذاتك عن هذه النيّة، وصلّي».

وقد بلّغتُ بالأَمر معرّفي الذي طلب منّي تدوين ما يرغب فيه الربّ منّا».

هذه الرؤيا، كانت رسالةً سماويّةً خطيرةً، أَسفرت عن سرّ ارتداد النفوس والأُمم، بممارسة أَعمال التكفير، وبالتكريس لقلب مريم الطاهر؛ وأَسفرت أَيضًا، عن سرّ الوساطات الخلاصيّة، وساطة يسوع مخلّصنا، ووساطة الإِفخارستيّا بجسد يسوع ودمه المقدّمين ضحيّةً تكفيريّةً، وطعامًا وشرابًا

خلاصيّين، ووساطة الماء الصافي، ماء الروح القدس، الذي، بالمناولة والتوبة، يهبنا الحياة، ويقدّسنا، ويغسلنا من أدناس الخطيئة.

وفي هذه الرؤيا، أيضًا، قدّمت العذراء مريم، التي كانت واقفةً تحت ذراع المصلوب اليمنى، قلبها المنقطع النظير، معلنةً سرّه، قلب التي حُبل بها بلا دنسٍ، قلب سيّدة الآلام المطعون، الشريكة في سرّ الفداء، والمكفّرة عن البشريّة المنحطّة، قلب أُمّ اللّه وأُمّ البشر، وسيطة النعمة، وموزّعة الرحمة على البشريّة المفتداة في الجلجلة.

وقد عبّر الربّ للأُخت لوسيّا عن غيظه البالغ من الإهانات التي تُلحَق بقلب أُمّه، وتؤلم قلبه البنويّ المحبّ، ووعد بخلاص جميع الذين يكرّمون قلب أُمّه، ويكفّرون عمّا يُهان به.

ومنذئذٍ غدا هاجس الأُخت لوسيّا وديدنها السعي لنشر تكريم قلب مريم الطاهر، وطقوس التكفير عن الإهانات التي تُلحق به؛ ولم تكن تفوّت سانحةً للمطالبة بإصرارٍ، بأن

يكرّس البابا، روسيّا، بالاشتراك مع جميع الأَساقفة، لقلب مريم الطاهر. وقد باحت لمعرّفها، عام ١٩٣٦ أَنّ الربّ أَوحى لها: «صلّي كثيرًا من أَجل الحبر الأَعظم. فهو سيقوم بتكريس روسيّا، ولكن بعد لأَيٍ. غير أَنّ قلب مريم الطاهر سينقذ روسيّا فهي موكلةٌ إِليه».

في شهر آب ١٩٣١، اعتلّت صحّة الأُخت لوسيّا، فأَرسلها رؤساؤها إِلى مدينةٍ ساحليّةٍ، كي تظفر بالراحة والنقاهة. وهناك، فيما كانت تصلّي أَمام صورة العذراء، ظهرت لها السماء، مجدّدًا. ونزولاً عند طلب معرّفها، دوّنت ما جرى آنذاك، فقالت:

«فيما كنت أَسأل الله ارتداد روسيّا، وإِسبانيا، والبرتغال، بدا لي أَنّ الجلالة الإِلهيّة تقول لي:

«إِنّكِ تقدّمين لي عزاءً كبيرًا بالتماسك ارتداد هذه الدول المسكينة. واطلبي ذلك، أَيضًا، من أُمّي، قائلةً لها، غالبًا: «يا قلب مريم الرقيق، كن خلاص روسيّا، وإِسبانيا، والبرتغال، وأُوروبّا، والعالم أَجمع». وقولي

لها، أحيانًا: «بحقّ الحبل بك بلا دنسٍ، يا مريم، حقّقي ارتداد روسيّا، وإسبانيا، والبرتغال، وأوروبّا، والعالم أجمع».

«وبلّغي خدّامي أنّهم، باحتذائهم مثال ملك فرنسا في إرجاء تنفيذ طلبي، سيلقون مثل ما لقي من كوارث. ولن يكون، أبدًا، قد فات وقت اللجوء إلى يسوع ومريم».

وكرّر الربّ شكواه، لاحقًا، من خلال وحيٍ داخليٍّ، قائلاً: «**لم يشاؤوا الاستجابة لطلبي!... على غرار ملك فرنسا سيندمون، ولكن لن تكون، إذّاك، ساعة مندم. إذ ستكون روسيّا قد نشرت، في العالم، أضاليلها، مسبّبةً الحروب، واضطهادات الكنيسة، وسيعاني الأب الأقدس آلامًا جمّةً**».

وما خلا هذه المساعي التي كلّفتها بها السماء، كانت الأُخت لوسيّا تتابع حياة التواضع والخفية، جاهدةً في كتم هويّتها. ويُروى، في هذا السياق، أنّ كاهنًا برتغاليًّا شابًّا، احتفل، ذات يومٍ، بالقدّاس، في معبد الدير، وكانت

الأُخت لوسيّا، يومها، تقوم بخدمة الموهف (السكرستيّا). وفي نهاية القدّاس، فيما كانت ترتّب الثياب الكنسيّة في أَماكنها، شكرها الكاهن، وسألها: «يا أُختي، هل بوسعي رؤية زميلتك الشهيرة «ماريّا دوريس»؟، فافترّت شفتا الأُخت عن ابتسامة دهشةٍ، وقالت: «أَتصفها بالشهيرة؟».

– «أَجل، كيف هي؟

– أُختٌ شبيهةٌ بسائر الأَخوات. تشبهني، مثلاً. نحن جميعنا متشابهات» وغادر الكاهن الدير، ولم يخامره شكٌّ بأَنّه تحدّث، فعلاً، إِلى الأُخت لوسيّا. وأَمثال هذه الحادثة كثيرةٌ.

لوسيّا الراهبة مع الأسقف «دا سيلڤا»

أَشفيةٌ... وطوفان رحمةٍ

«يا مريم، يا شفاء المرضى، صلّي لأَجلنا!»

دعاءٌ يقطر رجاءً، ويتعالى في فضاء كلّ معبدٍ تُكرَّم فيه العذراء! صيحة ثقةٍ تقود إِلى مريم نفوسًا عديدةً يرهقها وقر الخطيئة، وأَجسادًا أَنهكتها الآلام والأَمراض. والجميع يتلقّون جواب النعمة التي تشفي النفوس، غالبًا ما تبرئ الأَجساد، وتمنح، دائمًا، القوّة والتسليم. والسرّ يكمن في علاقة ثقةٍ واستسلامٍ بين البشر وأُمّهم السماويّة.

والأُمّ تنير نفوس أَبنائها، وتشدّ من عضدهم، في أَكثف ساعات يأسهم حلكةً، وتبلسم جراحهم الروحيّة والجسديّة.

كلّ مكانٍ تظهر فيه العذراء يصبح منبع نعمٍ، وصُوى هدايةٍ على درب الإِنسان، في حجّه الأَرضيّ نحو مصيره

الأَبـديّ، ومشفًى للنفوس والأَجساد، حيث تنتظر الأُمّ أَبناءها، صامتةً تصغي، سخيّةً تجود، مندفعةً توزّع، كي يزهر فرح اللّه في أَكثر الحيوات جَدْبًا وقنوطًا.

في صمت هذا المناخ فائق الطبيعة، ينكشف سرّ الآلام والمحن لكثيرين، فتستعيد النفوس الثقة، وتنتعش قدرة المرء على ترميم حياته.

وإِلى تلك الأَماكن المباركة يجتذب واقع اللّه غير المرئيّ، الذي ينساب في القلوب، ويصبح، فيها، حاجةً لا يمكن الاستغناء عنها.

يتقاطرون إِليها جماعاتٍ، يفيضون فرحًا، في الصلاة والرجاء. لا شيء يروعهم، لا تعبٌ، ولا إِزعاجاتٌ، ولا ساعات الانتظار الطويلة، فهناك ما يتخطّى الزمن، ولا يمكن القبض عليه، شيءٌ يبتغون الوصول إِليه بأيّ ثمنٍ...

أَمكنة الظهورات خيامٌ جديدةٌ ينصبها اللّه في صحراء البشر، كي يعلن، بالمعجزات، مجده، ويظهر عطفه اللامحدود، ويجعل المستحيل ممكنًا، ويصبح محسوسًا حيث

لا يمكن رؤيته. هنا، تسحق قدما مريم رأس الحيّة، ويلقى إِبليس فشلاً ذريعًا، وتفلت ضحاياه من براثنه.

وفي فاطمة، كم من أَشفية نفوسٍ وأَجسادٍ! معجزاتٌ تطبع في القلوب دمغتها. كثيرون كانوا يطلبون من الرؤاة أَن يحصلوا لهم من العذراء على أَشفيةٍ. وغالبًا ما كانت العذراء تستجيب أَو تجيب: «فليرتدّوا إِلى الله، أَوّلاً، وليتوبوا عن خطاياهم!». ثمّ غدوا يتوجّهون بالتماساتهم إِلى العذراء مباشرةً، وما انفكّت قائمة الأَشفية المعجزة تمتدّ. فالأُمّ دائمًا تلبّي، ولكن بالطريقة التي تراها الأَوفر جدوًى.

الفصل الرابع

حجٌّ، وتكريسٌ، وأسرارٌ، ورسالة

الحجّ إلى فاطمة يتكثّف، متحدّيًا السلطات

الاندفاع الشعبيّ المتعاظم، والتحوّلات النفسيّة المتزايدة، يومًا فيومًا، جعلت الكردينال «سيريخيرا» (Cerejeira)، يؤمن بظهورات فاطمة. فقد أعلن، في ١٣ أيّار ١٩٤٢، بمناسبة اليوبيل الفضّي للظهورات: «في البدء كنت ممّن أبوا الإيمان بالمعجزة، وبدت لي الظهورات تقليدًا ممسوخًا لما جرى في لورد. كنت، حينئذٍ، في مدينة «كويمبرا» (Coimbra) غير البعيدة عن فاطمة، أُدرّس التاريخ، في كلّيّة الآداب، ولم يكن الحدث الذي يتداول الناس أمره بحماسٍ، يثير من اهتمامي شيئًا. ومع أنّ هذا الموضوع كان يبدو خارقًا، لم أكن أُطالع تحقيقات الصحف عنه. غير أنّ حدث فاطمة تغلّب على تحفّظ الكنيسة الحذِر، وعلى مقاومة الحكومة العنيفة. وما انفكّ مدّ الحجّ يتعاظم، وتتكاثر، يومًا فيومًا، ارتدادات

اللامؤمنين، وتنتشر أنباء الأشفية. ومن منزلي الجاثم على مقربةٍ من الجامعة، كنتُ أشهد في أيّام الثاني عشر والثالث عشر من أشهر الحجّ، أرتالاً متواصلةً من السيّارات، تتدفّق، على مدى ساعاتٍ. هذا الاندفاع الذي كان يتنامى، سنةً فسنةً، مع افتقاره إلى كلّ دعمٍ خارجيٍّ، بل مع ما كان يواجَه به من مقاومةٍ، فضلاً عن اطّلاعي على الأحداث العجيبة، ووفرة الثمار الروحيّة، أخذ يهزّ موقفي اللامبالي».

ومثلما حدث، أيّام كرازة يسوع، كان الفقراء والفلاّحون، سكّان الأرياف، هم طليعة المصغين إلى رسالة السماء. وقد أدلت «ماريّا كاريرا» إحدى أولى المؤمنات بظهورات فاطمة، بالشهادة التالية: «منذ الثالث عشر من تشرين الأوّل، يوم رقصت الشمس، ما انفكّت أرتال الحجّاج تتدفّق، وخاصّةً بعد ظهر أيّام الأحد، وفي الثالث عشر من كلّ شهر. بعضهم من أهالي المنطقة، وبعضهم قادمون من بعيد. الرجال كانوا يتوكّأون على عصًا، وزادهم على ظهرهم، والنساء حاملاتٍ أطفالهنّ على سواعدهنّ. وكان يأتي، أيضًا، شيوخٌ واهنون. وكان جميع القادمين يجثون أمام شجرة البلّوط التي ظهرت،

فوقها، السيّدة العذراء، ويبكون ويتضرّعون. كانوا يقومون بأعمال توبةٍ وتكفيرٍ، بفرحٍ غامرٍ، ويعودون إلى منازلهم سعداء، راضين. كانوا يلتمسون من العذراء معجزاتٍ، وكانت تلبّي التماساتهم. كانت التقوى تحدو القادمين، والمفتقرون إلى التقوى كانوا يظفرون بها هنا».

وبما أنّ الحجّاج، حتّى الفقراء منهم، كانوا يتبرّعون بما يتيسّر لديهم من مالٍ، فقد تطوّع بعض أفراد رعيّة فاطمة، لتلبية مطلب العذراء، بإشادة معبدٍ في موقع الظهورات. وإذ كانت أرض ذلك الموقع تخصّ ذوي لوسيّا، كان لا بدّ من موافقة والدها، الذي ارتضى خسارة رزقٍ هامٍّ؛ فقد كانت تلك الأرض، تُستثمر، آنفًا، في زراعاتٍ تدعم ميزانيّة الأُسرة الزهيدة. وقال السيّد أنطونيوس دوس سانتُس، والد لوسيّا: «إنّنا نفقد نهائيًّا أرض «كوڤا دا إيريا»، ولن نستطيع، بعد الآن، التعويل على إنتاجها. غير أنّ هذا هو عمل الله، والله سيعيننا على الاستغناء عنها». وقال لمن طلبوا بناء معبدٍ عليها: «اجعلوه كبيرًا، بقدر ما ترغبون».

لم يتدخّل أَيّ كاهنٍ في أَمر البناء، إذ كانت تعليمات الأُسقف تقضي بألاّ يبدي الإِكليرُس أَيّ اهتمامٍ بشأن الظهورات. ولّما نهض البنيان المتواضع، لم يرضَ أَيّ كاهنٍ بمباركته، فلم يتمّ تكريسه إِلاّ بعد حينٍ، وتمّ، أَيضًا، توسيعه.

وتبرّع فنّانٌ شابٌّ بنحت التمثال الأَوّل لسيّدة فاطمة، من الخشب. وتقرّر تنصيبه في الثالث عشر من أَيّار ١٩٢٠، فتقاطرت مواكب الحجّاج من كلّ صوبٍ، للمشاركة في هذا الحدث، متحدّيةً المطر المدرار الذي انهمر، في ذلك اليوم، وبنادق شرطة الحكومة الماسونيّة، التي كانت المظاهر الدينيّة تزعجها. بيد أَنّ موقف الحكومة الأَخرق هذا أَفضى إِلى عكس ما توخّته السلطات منه، إذ إِنّه أَدّى إِلى إِلهاب التقوى الشعبيّة، وإِلى تزويدها بمزيدٍ من الإِصرار على المقاومة.

هذه التقوى المتّقدة، وهذا الإِصرار الشعبيّ العنيد والبطوليّ، وجميع الوقائع المواكبة للحدث، حملت، أَخيرًا، الأُسقف «دا سيلڤا» على تبنّي موقفٍ إِيجابيٍّ من ظهورات

فاطمة، فقرّر الإشراف على مواكب الحجّ التي نشأت عفويًّا، فشخص بنفسه إلى موقع الظهورات في ١٢ أيلول ١٩٢١، للمرَّة الأولى، وتلا، ثمّة، المسبحة. ثمّ سمح لأحد كهنته بمباركة المعبد المشاد في ذلك المكان، وبإقامة القدّاس فيه.

وأمعنت السلطات الماسونيّة في مقاومة مدّ الحجّ إلى مكان الظهورات، واستنفرت الجيش، عام١٩٢٠، لصدّ مواكب الحجّ، صدّاً عنيفًا. ولكن، في ١٣ أيّار من ذلك العام، اخترقت الجموع «خطوط الأعداء»، ووصلت إلى المزار عنوةً، وقد انضوى إلى صفوفها عددٌ من الجنود المؤمنين.

ومع ذلك مضت السلطات الحكوميّة في غيّها قدُمًا، فكلّفت أزلامها بتفجير المعبد في شهر آذار١٩٢٢، فنظّم كاهن الرعيّة تطواف احتجاجٍ اشترك فيه ما يربو على عشرة آلاف مؤمنٍ، احتفلوا بقدّاسٍ، تحت سقف المعبد المدمّر.

وتنامى تدفّق الحجّاج، على إثر جريمة التفجير.

وكان لا بدّ من إضفاء صبغةٍ رسميّةٍ على الظهورات، فقرَّر الأُسقف، تحت ضغوط كهنته، الشروع بتحقيقٍ كنسيٍّ.

خلال عامي ١٩٢٣ و١٩٢٤، حاولت السلطات، مجدّدًا، منع الوصول إلى «كوڤا دا إيريا»، ولكنّ كلّ محاولاتها باءت بالفشل، لا بل أفضت إلى نقيض ما ابتُغي منها، إذ غدا الجنود أنفسهم، المكلّفون بردع الحجّاج، ينضمّون إليهم في اقتحام المزار. وقد أوجز الكردينال «سيريخيرا» الحالة السائدة إذّاك بقوله:

«رغم تحفّظ الكنيسة، ومقاومة السلطة العنيدة والحمقاء، ظلّت فاطمة تهزّ وجدان الوطن الدينيّ. بمعزلٍ عن الكنيسة، ورغم مقاومة الدولة، ما فتئت أنوار المعجزة تشعّ، وتزداد تألّقًا في سماء البرتغال، ونار الاندفاع الشعبيّ تمتدّ إلى البلاد بأسرها».

وما لبثت ظهورات فاطمة أن أحدثت تطوّرًا جذريًّا في علاقة الدولة بالكنيسة. فبعد عقودٍ من حكم الماسونيّين، ومقاومتهم الشرسة لجميع المظاهر الدينيّة، تولّت مقاليد الحكم، منذ كانون الأوّل ١٩٢٧ حكومةٌ أعادت للكنيسة حرّيّتها وحقوقها وهيبتها. وفي ١٢ أيّار ١٩٢٩، زار معبد فاطمة رئيس الدولة تصحبه ثلّةٌ من وزرائه.

وما انفكّت العذراء تؤكّد حضورها وتعاطفها مع المؤمنين. ففي ١٣ أيّار ١٩٢٤، احتشد عند أقدام سيّدة فاطمة، جمهورٌ لم يشاهَد، قطّ، مثل كثافته، إذ ارتقى عديده إلى مئتي ألف مؤمنٍ، أي ثلاثة أضعاف عدد الذين شاهدوا معجزة رقصة الشمس. ولكي تعبّر العذراء عن رضاها، تكرّر، بتلك المناسبة، المشهد الذي كان قد حدث في ١٣ أيلول ١٩١٧، وفي ١٣ أيّار ١٩١٨، فشاهد الحضور تهاطل ما يشبه رقع ثلجٍ، أو بتلات وردٍ، كانت تتساقط برقّةٍ من السماء، وتذوب حالما تلامس الأرض. وقد حدث ذلك على مرأًى من الأُسقف «دا سيلڤا»، ولكأنّ العذراء كانت تبتغي إقناع السلطات الكنسيّة بواقع حضورها في ذلك المكان المبارك، وبحقيقة رسالتها، وتحرّض الأساقفة والبابا على تبنّي تكريم قلبها الطاهر، وتعميم هذا التكريم في الكنيسة كلّها.

وتوالت زيارات المسؤولين الكنسيّين إلى فاطمة. ففي الأوّل من تشرين الثاني ١٩٢٦، حضر القاصد الرسوليّ. ومع أنّ ذلك اليوم لم يكن يوم حجٍّ، كان هناك جمعٌ غفيرٌ من

المؤمنين الراكعين بخشوعٍ، وقد اعترف القاصد الرسوليّ: «بدا لي وكأنّ السيّدة العذراء كانت موجودةً بين أولئك القوم البسطاء». وقد أَخذ منه التأثّر كلّ مأخذٍ. ثمّ تلا الأُسقف «دا سيلڤا» المسبحة جهارًا. بعدئذٍ تمّت زيارة أُسقف مادير، في موكب حجٍّ، واحتفاله بالقدّاس. وكانت هذه الزيارات المتلاحقة بمثابة اعترافٍ رسميٍّ، وتشجيعٍ لتنمية الحجّ إِلى فاطمة.

وفي ٢٦ حزيران ١٩٢٧ تمّ تدشين درب الصليب الكبير، في فاطمة، الممتدّ على مسافة ثلاثة عشر كيلومترًا. وفي ١٣ أَيّار ١٩٢٨، احتُفل بوضع حجر أَساس الكاتدرائيّة الكبرى.

وتجاوز عدد الحجّاج الذين أَمّوا فاطمة، عام ١٩٢٨، مليون حاجٍّ.

وفي ١٣ تشرين الأَوّل ١٩٣٠، أَي بعد انقضاء ثلاثة عشر عامًا على الأَحداث، أَعلن الأُسقف «دا سيلڤا»، بعد موافقة البابا بيّوس الحادي عشر، أَنّ رؤى الرعاة الأَطفال الثلاثة، في «كوڤا دا إِيريا»، التي حدثت بين ١٣ أَيّار و١٣ تشرين

الأَوّل ١٩١٧، جديرةٌ بالتصديق، كما أَعلن، رسميًّا، الموافقة على تكريم «سيّدة فاطمة».

وتعبيرًا عن فرحهم وشكرهم، قرّر البرتغاليّون تنظيم حجٍّ كبيرٍ في ١٣ أَيّار من عام ١٩٣١، بإِشراف جميع أَساقفة البرتغال، على أَن يشتركوا، جميعهم، في تكريس وطنهم، علنًا، لقلب مريم الطاهر. وقد اشترك في هذا الاحتفال زهاء ثلاث مئة أَلف مؤمنٍ تقاطروا من كلّ أَرجاء البرتغال.

وجُدِّد هذا التكريس في ١٣ أَيّار ١٩٣٨، وكان يحيط، حينذاك، بالواحد وعشرين أُسقفًا، الملتئمين في «كوڤا دا إِيريا»، خمس مئة أَلف حاجٍّ، فيما احتشد في الكنائس آلاف المؤمنين، مشاركين في هذا التكريس.

وبفضل هذا التكريس، نجا البرتغال من ويلات الحرب العالميّة الثانية التي نشبت بعد بضعة أَشهرٍ، والتي عمّت سائر دول أوروبّا، مُشيعةً فيها الموت والدمار، في حين نعم البرتغال بالسلام.

تكريمٌ وتقديسٌ لقلب مريم الطاهر

ليلة الخامس والعشرين من كانون الثاني ١٩٣٨، أَضاء سماء أوروبّا نورٌ هائلٌ، وكأَنّه حريقٌ عظيمٌ. وقد رأت فيه لوسيّا علامة «النور المجهول» المنذر بحربٍ تستنزف سيولاً من الدماء، وفقًا لما جاء في ظهور ١٣ تمّوز ١٩١٧. وحينئذٍ، أَمعنت إِلحاحًا في مطالبتها بتكريس روسيّا لقلب مريم الطاهر، وبتعميم ممارسة الاعتراف والمناولة التكفيريّة، يوم السبت الأَوّل من كلّ شهرٍ، على مدى خمسة أَشهرٍ متتاليةٍ. وأَوغلت في التحذير من حربٍ مدمّرةٍ، عدّة أَشهرٍ قبل نشوبها، حربٍ حصدت ما يربو على أَربعين مليون ضحيّة.

في خريف عام ١٩٤٠، اقترح الأُسقف مانويل فيرّيرا (Ferreira)، أُسقف مدينة «غورزا» البرتغاليّة، أَن تكتب الأُخت لوسيّا، مباشرةً، إِلى البابا بيوس الثاني عشر، طالبةً

تكريس العالم، مع ذكرٍ خاصٍّ لروسيّا، لقلب مريم الطاهر. وبما أنّ هذا الطلب لم يكن متوافقًا تمامًا مع طلب العذراء التي خصّت روسيّا بالتكريس، وقعت الأُخت لوسيّا في حيرةٍ هاصرةٍ، وتوسّلت إلى الله أن يلهمها سواء السبيل، وألهمها الله أن تكتب بحسب توجيهات رؤسائها.

في ٢٤ تشرين الأوّل ١٩٤٠ سطّرت الأُخت لوسيّا رسالةً إلى الأب الأقدس سلّمتها إلى رئيستها، كي تُنفِذها إلى الأُسقف «دا سيلڤا»، فيرسلها، بدوره، إلى الأُسقف مانويل فيرّيرا، صاحب الاقتراح. فالأُخت لوسيّا لم تستغلّ، يومًا، كونها الرائية التي اختارتها العذراء، بل آثرت، دائمًا، العمل بموجب أوامر الطاعة. وقد شقّت عليها الطاعة، في هذه المناسبة، ولكنّها امتثلت لمقتضاها عندما أرسل لها الأُسقف «دا سيلڤا» مسوّدة رسالةٍ معدّلةٍ، كي توجّهها إلى قداسة البابا، وقد تجاهل، في التعديلات التي أدخلها على الأصل، الكثير من مطالب العذراء، وجرّد النصّ الأصليّ من بساطته المستساغة، وعفويّته العذبة.

المغلّف الذي أودع فيه الأسقف «دا سيلڤا» سرّ فاطمة

كانت العناية الإلهيّة قد أعدّت البابا بيوس الثاني عشر، كي يكون «بابا فاطمة»، فسيامته الأُسقفيّة كانت قد تمّت في ١٣ أيّار ١٩١٧، في الوقت عينه الذي حدث فيه ظهور ملكة الورديّة البيضاء على تلّة فاطمة. وقد أشار قداسته إلى هذا التوافق في خطبةٍ له، عام ١٩٥١، مبيّنًا»: «ولكأنّ أُمّنا كلّيّة القداسة ابتغت إفهامنا أنّه، في الحقبة العاصفة التي تندرج في أثنائها حبريّتنا، وفي حومة واحدةٍ من أخطر أزمات التاريخ العالميّ، سننعم، دائمًا، بمعونةٍ أُموميّةٍ ساهرةٍ، تكتنفنا وتحمينا، وترشدنا، من قِبَل المنتصرة الكبرى، في جميع معارك الله».

وكان قداسته قد أكّد، عام ١٩٥٠، لرئيس رهبنة البينيدكتيّين: «بلّغ رهبانك أنّ فكرة البابا ماثلةٌ في رسالة فاطمة».

قناعات قداسته العميقة كانت تدفعه إلى تنفيذ كلّ رغبات العذراء، بكلّ حذافيرها. غير أنّ مسؤوليّاته كانت توجب عليه، تحرّزًا من كلّ زلَلٍ، الأخذ برأي معاونيه ومستشاريه.

وقد ارتأى كثيرون منهم أنّه لا يسوغ تكريس بلدٍ إلاّ بموافقته، وإلاّ عدّ تكريسه تدخّلاً سافرًا في شؤونه الخاصّة. وكان من شأن تكريس روسيّا إثارة استنكار الكنيسة الأُرثوذوكسيّة التي طالما اتّهمت الكنيسة الكاثوليكيّة بمحاولة «اقتناص» مؤمنيها.

هذا فضلاً عن أنّ لاهوتيّين منتمين إلى الجمعيّة اليسوعيّة، يحتلّون في الفاتيكان، مراكز مرموقةً ومؤثّرةً، كانوا، مع اعترافهم بظهورات فاطمة، قد شرعوا يشنّون حملة تشكيكٍ بحرفيّة الرسائل التي نقلتها الأُخت لوسيّا عن السيّدة العذراء، وكان لهذه الحملة تأثيرٌ أكيدٌ على موقف البابا.

وإثر نشوب الحرب، عام ١٩٤١، أُلهمت الأُخت لوسيّا بوجوب حسر اللثام عن سرّ عام ١٩١٧، حيثُ عُيّنت روسيّا، تحديدًا، بصفتها العدوّ الأَشدّ رهبةً للكنيسة، وللمسيحيّة، ولسلام العالم. ولم تلبث الأَحداث أَن أَثبتت للبابا هذا الواقع. وقد جاء في رسالةٍ له بتاريخ ٢٢ أيلول ١٩٤٢: «استجابةً لطلب الرئيس روزفلت، أوقف الفاتيكان كلّ سجالٍ مع النظام الشيوعيّ. غير أنّ هذا الصمت الذي يرين على ضمائرنا، لم يفهمه القادة السوفييتيّون، الذين يواصلون، في

الاتّحاد السوفييتيّ، وفي البلدان التي يحتلّها الجيش الأَحمر، اضطهاداتهم للكنائس وللمؤمنين. نرجو ألاّ يندم العالم الحرّ، يومًا على صمتنا».

كان البابا يواجه ظروفًا مأساويّةً ضاغطةً، ممزَّقًا بين رغبته في تحقيق مطالب السيّدة العذراء، كما عبّرت عنها الأُخت لوسيّا، من جانبٍ، ومقتضيات الدبلوماسيّة، ومسؤوليّات منصبه، من جانبٍ آخر. ومع ذلك، وجّه في ٣١ تشرين الأَوّل ١٩٤٢، خطابًا إِلى البرتغاليّين، جاء فيه:

«يا ملكة الورديّة المقدّسة، يا غوث المسيحيّين، وملجأ الجنس البشريّ.... إِليكِ، وإِلى قلبك الطاهر، المنزّه من كلّ لوثةٍ، في هذه الساعة المأساويّة من التاريخ البشريّ، نوكل، ونهب، ونكرّس: ليس فقط الكنيسة المقدّسة، جسد ابنك يسوع السرّيّ، الذي يتألّم وينزف، في أَماكن عديدةٍ، وسط اضطراباتٍ كثيرةٍ، بل، أَيضًا، العالم أَجمع الذي تمزّقه خلافاتٌ قاتلةٌ، ويلهبه حريق الكراهيّة، العالم الواقع ضحيّة مظالمه، وذنوبه...

«يا أُمّ الرحمة، احصلي من اللّه على السلام، وقبل كلّ شيءٍ، على النعَم الكفيلة بتحويل قلوب البشر، النعَم التي تُعِدّ، وتسهّل، وتضمن السلام! يا ملكة السلام، صلّي لأَجلنا، وهبي العالم الذي تدمّره الحروب، السلام الذي تتوق إِليه الشعوب، سلام الحقيقة، والعدل، ومحبّة المسيح. هبيه سلام السلاح، وسلام النفوس، كي يترسّخ ملكوت اللّه، في الاستقرار».

وفي تلميحٍ إِلى روسيّا، قال:

«إِلى الشعوب التي يفرّقها الضلال والخصام، وبخاصّةٍ إِلى الذين يكنّون لك تكريمًا مميّزًا، وحيث لم يخلُ بيتٌ من إِيقونةٍ لك تحاط بالتكريم، وقد باتت الآن مُخبّأةً، بانتظار أَيّامٍ أَفضل، هبي السلام...

«نالي لكنيسة اللّه سلامًا وحرّيّةً كاملين. صدّي تدفّق طوفان الوثنيّة الجديدة، والماديّة، ونمّي، لدى المؤمنين، حبّ الطهر، وممارسة الحياة المسيحيّة، والغيرة الرسوليّة، كي يزداد شعب خدّام اللّه استحقاقًا وعددًا.

«وأَخيرًا، مثلما كُرِّس لقلب ابنك يسوع الكنيسة والجنس البشريّ أَجمع، كي، بإيداع رجائهم فيه، يصبح لهم علامةً وضمانةً للنصر والخلاص، هكذا، فليكونوا، الآن وللأَبد، مكرّسين لكِ، ولقلبكِ الطاهر، يا أُمّنا، ويا ملكة العالم، فيعجّل حبّكِ وحمايتكِ انتصار ملكوت الله، وتعلنكِ طوباويّةً جميع الأُمم المتصالحة في ما بينها ومع الله، وتنشد معكِ، من جميع أَرجاء المسكونة، «تعظيمتكِ» الخالدة، تعظيمة المجد، والحبّ، والشكر لقلب يسوع، الذي، فيه وحده، نجد الحقيقة، والحياة، والسلام».

لا ريب أَنّ هذا التكريس قد آتى ثمارًا وفيرةً، غير أَنّه لم يكن التكريس الذي ابتغته السيّدة العذراء في ظهور ١٣ تمّوز ١٩١٧، وكرّرته في ظهورٍ خاصٍّ للأُخت لوسيّا، في دير «توي» بتاريخ ١٣ حزيران ١٩٢٩، والذي يقتضي تكريس روسيّا، تحديدًا، تكريسًا علنيًّا، يشترك به، مع البابا، جميع الأَساقفة الكاثوليكيّين. فهذا التكريس هو الكفيل بتحقيق ارتداد روسيّا، ودرء مدّ أَضاليل الشيوعيّة واضطهاداتها.

في ٨ كانون الأوّل ١٩٤٢، جدّد البابا بيّوس الثاني عشر، التكريس لقلب مريم الطاهر، في كاتدرائيّة القدّيس بطرس الكبرى في الفاتيكان، باللغة البرتغاليّة، وفي طقوس تكفيرٍ واستغاثةٍ، بحضور أربعين كردينالاً، وعددٍ غفيرٍ من الأساقفة، والهيئة الدبلوماسيّة، وإكليرُس روما، وحشدٍ كثيفٍ من الحجّاج، داعيًا الشعب إلى الاشتراك في فعل التكريس هذا، محرِّضًا الأساقفة على تكريس أبرشيّاتهم، والكهنة رعاياهم، والمؤمنين أنفسهم، لمريم العذراء.

اتّضح، من خلال رسائل سيّدة فاطمة، أنّ سلام العالم يتحقّق بواسطة مريم العذراء، وكان الربّ قد وعد بتقصير أمد الحرب، إن كرّس الأب الأقدس العالم، مع ذكرٍ خاصٍّ لروسيّا، لقلب مريم الطاهر، وهذا ما فعله البابا بيّوس الثاني عشر في ١٣ تشرين الأوّل ١٩٤٢. وفي ليلة ٣/٢ تشرين الثاني قرّر رومل الانسحاب من المعركة مع حلفائه الإيطاليّين، مخلّفًا، في ساحة الوغى، خمس مئة عربة قتالٍ، و١٢٠٠ مدفع، وأربعين ألف أسيرٍ.

ثمّ جدّد الحبر الأَعظم هذا التكريس في ٨ كانون الأَوّل ١٩٤٢، ورغبةً في تلبية طلب العذراء كاملاً، جدّد، مرّةً أُخرى، تكريس روسيّا لقلب مريم الطاهر، في ٧ تمّوز ١٩٥٢، الموافق لعيد القدّيسَين كيرلّس وميتوديُس اللّذين بشّرا الشعوب السلافيّة. وإِليكم نصّ هذا التكريس:

«لكي تُستجاب صلواتنا على نحوٍ أَفضل، ولكي نقيم برهانًا دامغًا عل حسن نوايانا، ومثلما كنّا قد كرّسنا، لبضع سنواتٍ خلت، كلّ الجنس البشريّ لقلب العذراء، أُمّ اللّه، المنزّه من كلّ لوثةٍ، نكرّس الآن، على نحوٍ خاصٍّ، ونوكل جميع شعوب روسيّا لهذا القلب الطاهر عينه».

وقد أوعز البابا بيّوس الثاني عشر لجميع أَساقفة العالم أَن يجدّدوا تكريسه العالم، لقلب مريم الطاهر، في عيد العذراء، ملكة الكون، أَي في ٣١ أَيّار من كلّ عام.

وكان الربّ قد أَوحى للأُخت لوسيّا: «أَرغب رغبةً شديدةً في نشر طقس تكريم قلب مريم الطاهر، لأَنّ هذا القلب هو المغنطيس الذي يجتذب إِليّ النفوس، ولأَنّه البؤرة التي تشعّ

على الأَرض أَشعّة نوري وحبّي، والنبع الذي لا ينضب، الذي يفجّر، على الأَرض، ماء رحمتي الحيّ».

وتلبيةً لطلب الأُخت لوسيّا، قرّر البابا إِقامة عيدٍ رسميٍّ لقلب مريم الطاهر، المنزّه من كلّ لوثةٍ، وقد علّقت الأُخت على ذلك بقولها: «إِنّ هذا التكريم لقلب مريم الطاهر هو الذي سيخلّصنا».

في ١٣ أَيّار ١٩٤٦ احتفل البرتغال بالذكرى المئويّة الثالثة لتكريس البلاد للعذراء الطاهرة، وتمّ تتويج تمثال سيّدة فاطمة. رغم الرياح والأَمطار، احتشد ثماني مئة أَلف حاجٍّ في فناء الكاتدرائيّة، من أَجل تكريم الملكة السماويّة، بحماسٍ يستعصي على الوصف. كانت الأُمّة كلّها ممثّلة في ذلك الاحتفال. ضبّاطٌ وجنودٌ حملوا المحفّة التي جثم عليها تمثال سيّدة فاطمة، وسلّمت رئيسة اتّحاد النساء البرتغاليّات تاجًا من ذهبٍ إِلى وزير الداخليّة الذي كان يمثّل رئيس الدولة، وسلّمه الوزير إِلى السفير البابويّ الذي توّج به التمثال. وبهذه المناسبة وجّه قداسة البابا، عبر الأَثير، إِلى

تمثال لسيّدة فاطمة مشيرةً إلى قلبها المحاط بالأشواك

المحتفلين، خطابًا، بمثابة اعترافٍ رسميٍّ بظهورات «كوڤا دا إيريا».

وفي ختام اليوبيل، جرى تطوافٌ بتمثال سيّدة فاطمة، اجتاز أربع مئة كيلومتر، ابتدأ من موقع الظهورات، في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٦، وانتهى، ليلة عيد الميلاد، في ليشبونة العاصمة. وفي أثناء هذا التطواف حدثت معجزة الحمامات الشهيرة. فخلال المسيرة، أطلقت فتاتان ستّ حماماتٍ، حطّت خمسٌ منهنّ على محمل التمثال، والتصقت ثلاثٌ منهنّ بالتمثال على امتداد المسيرة، لا ينأين عنه، حتّى في آناء الليل، عندما كان التمثال يودع في كنيسة المكان الذي انتهى إليه التطواف. كان المطر، أحيانًا، يبلّلهنّ، ولكنّهنّ ظلَلنَ لاطياتٍ عند تمثال السيّدة. وفي ليشبونة، لدى إدخال التمثال إلى كنيسةٍ جديدةٍ مكرّسةٍ على اسم «سيّدة فاطمة»، حيث كان سيمكث ثلاثة أيّامٍ من ٥ إلى ٧ كانون الأوّل، حلّقت الحمامات في الجوّ، بضع لحظاتٍ، قبل أن يعدنَ إلى موقعهنّ، وكأنّهنّ ابتغينَ أن يثبتنَ للجماهير أنّهنّ غير مقيّداتٍ. ولدى دخول التمثال إلى الكنيسة استدرنَ لكيلا

يُدرنَ ظهورهنّ للهيكل. ولمّا حان وقت المناولة جثمت إحداهنّ فوق تاج التمثال، وظلّت باسطةً جناحيها، طالما استمرَّت مناولة أربعة آلاف مؤمنٍ، في وضع سجودٍ وعبادةٍ، لكأنّ تلك الحمامات كانت تشير إلى رسالة السلام التي انطلقت من فاطمة.

عام ١٩٤٧، تمّت «مسيرة سيّدة فاطمة العالميّة»، التي استمرَّت عشر سنواتٍ متواصلةٍ، اجتاز خلالها تمثالُ العذراء المزدانُ بحماماتٍ بيضاء، رابضةٍ عند أقدامه، معظم أقطار العالم، محقّقًا «حجّ معجزات».

في أعقاب هذه المسيرة، تأسّس في العام عينه -١٩٤٧- في الولايات المتّحدة الأميركيّة «جيش سيّدة فاطمة الأزرق»، وقد تضمّن برنامجه تلاوة المسبحة يوميًّا، وتكريم قلب مريم الطاهر، بعناصره كافّةً: التكفير، والتكريس، وارتداء وشاح سيّدة الكرمل، وأعمال التوبة. وقد لاقت هذه الحركة من الرواج والإقبال ما رفع عدد المنتسبين إليها، في عام ١٩٥٠، إلى المليون منتسبًا.

«معجزة الحمامات»، خلال تطواف تمثال سيّدة فاطمة في إيطاليا

وبلغ تكريم سيّدة فاطمة أَوجه في أَيّار ١٩٤٨، في العاصمة الإسبانيّة، مدريد، حيث كان أُسقف المدينة يحتفل بيوبيل أُسقفيّته الفضّيّ؛ وقد استضاف، لهذه المناسبة، على مدى الأَيّام التسعة الأَخيرة من شهر أَيّار، تمثال سيّدة فاطمة. وكان في استقباله عند مدخل مدريد – التي كانت تعدّ، آنذاك، ثماني مئة أَلف ساكنٍ – مليونٌ ونصف مؤمنٍ، يرحّبون بالضيف المحبوب. وقد دأبت زوجة رئيس الدولة وابنته على زيارة التمثال، يوميًّا، في جميع الكنائس التي كان يحلّ فيها.

وقد أَحدثت زيارة تمثال سيّدة فاطمة إِلى مدريد، معجزاتٍ روحيّةً مدهشةً، وغدت مصدر نهضةٍ إِيمانيّةٍ مذهلةٍ. وتجلّت أَمثلةٌ لهذه الظاهرة في مختلف أَرجاء البسيطة: في أَميركا، وأوروبّا، وأَفريقيا والهند، وأَندونيسيا، وأوستراليا، حيث انهمرت بركات السماء وآلاؤها بغزارةٍ جعلت البابا بيّوس الثاني عشر يعلن: «نكاد لا نصدّق ما تراه عيوننا!». وقد توسّم قداسته، في فاطمة، مرفأ الخلاص الأَخير، ورجاء العالم الأَكبر.

في الأَوّل من تشرين الثاني ١٩٥٠ أَعلن قداسته عقيدة انتقال العذراء بالجسد إِلى السماء. وكان، عشيّة ذلك اليوم، قد أُعطي أَن يرى، في أَثناء نزهته اليوميّة في حدائق الفاتيكان، مشهد رقصة الشمس، التي عاينها، في ١٣ تشرين الأَوّل ١٩١٧ نحو سبعين أَلف متفرّجٍ. ويُرجَّح أَنّ تلك الرؤيا قد تمّت تلبيةً لالتماس الأُخت لوسيّا، كي يحزم الحبر الأَعظم أَمره، ويقتنع بأَنّ الوقت قد حان لتلبية جميع مقتضيات العذراء ورغباتها.

في السابع من شهر تمّوز ١٩٥٢، الموافق لعيد القدّيسين كيرلُّس وميتوديُس، الرسولين اللذين بشّرا الشعوب السلافيّة، ونزولاً عند إِلحاح الكاثوليكيّين الروس، وجّه قداسة البابا رسالةً، أَرادها بمثابة تكريس روسيّا لقلب مريم الطاهر. بيد أَنّ لوسيّا ارتأت أَنّ هذا التكريس لم يستوفِ شروط العذراء، فهو لم يشِرْ إِلى طلب سيّدة فاطمة بهذا الشأن، ولم يأتِ على ذكر الاعتراف والمناولة التكفيريّة على مدى خمسة أَيّام السبت الأَوّل من الشهر، ولم يكن التكريس علنيًّا، وباشتراك جميع الأَساقفة الكاثوليكيّين.

ومع ذلك ظلّت الأُخت لوسيّا تؤمن وتؤكّد أَنّ السيّدة العذراء ستنتصر وقد أَكّدت للأَب أَلونسو:

«إِنّ تكريس روسيّا، وانتصار قلب مريم الطاهر النهائيّ الذي سيليه، أَمران مؤَكَّدان، وسيتحقّقان رغم جميع العقبات». وكانت حجّتها أَنّ سيّدة فاطمة التي جعلت الشمس ترقص عام ١٩١٧، لن يتعذّر عليها ارتداد روسيّا.

لوسيّا وأَسرار فاطمة

في الجزء الثالث من مذكّرات الأُخت لوسيّا، الذي دوّنته في شهرَي تمّوز وآب ١٩٤١، ذكرت أَنّ سرّ فاطمة ينشطر إِلى ثلاثة أَجزاء، وسبق لها أَن أَزاحت اللثام عن اثنين منهما، أَوّلهما رؤية جهنّم التي تمّت خلال ظهور الثالث عشر من تمّوز ١٩١٧، وثانيهما طقوس التكفير عمَّا يُلحق بقلب مريم الطاهر من إِهاناتٍ، وتكريس روسيّا لقلبَي يسوع ومريم.

هذان السرّان، كانت السيّدة العذراء قد طلبت إِرجاء الكشف عنهما في حينه، وإِلى أَن يحين الأَوان الملائم، لأَنّ لوسيّا كانت عاجزةً، حينئذٍ، عن التعبير عن رؤيتها لجهنّم، وكان من شأن تعبيرٍ سيّئٍ أَو ناقصٍ أَن يفسد المغزى؛ أَمّا عن روسيّا، فلم يكن ممكنًا فهم مقصد العذراء، في أَيّام الظهورات الأُولى، ولكنّ إِدراك هذا المقصد سيصبح أَوفر

يُسرًا على ضوء الأَحداث التي جرت في السنوات التي تلت الظهورات، ولاسيّما تفاقم اضطهاد الشيوعيّة الملحدة للمسيحيّة وممثّليها. ولو كانت لوسيّا قد باحت بذلك السرّ إثر الظهورات مباشرةً، لكانت الأَحداث اللاحقة أَظهرتها بمظهر المتنبّئة، وإِنّما توخّت العذراء إِظهارها بمظهر حاملة رسالةٍ خلاصيّةٍ، لا بمظهر متنبّئةٍ.

في منتصف شهر تشرين الأَوّل ١٩٤٣ أَمرها أُسقف ليرا «دا سيلڤا» بتدوين الجزء الثالث من السرّ، على أَن تسلّمه إِيّاه، في مغلّفٍ مختومٍ. ولكنّها، كلّما حاولت تدوينه كانت قوّةٌ خفيّةٌ قاهرةٌ تمنعها. هذا ما أَسرّت به لمعرّفها ليلة عيد الميلاد. غير أَنّ العذراء ظهرت لها في ٢ كانون الثاني ١٩٤٤، وبدّدت هواجسها وشكوكها، فدوّنت جزء السرّ الثالث في معبد دير «توي». وفي التاسع من كانون الثاني أَبلغت الأُسقف أَنّها فرغت من تدوين ما طلب منها، وأَودعته داخل ظرفٍ مختومٍ، وسلّمته لأُسقف «غورزا»، كي يسلّمه له، باليد. وقد وضع المطران «دا سيلڤا» الظرف الذي تسلّمه من زميله، في مغلّفٍ أَكبر، وختمه بالشمع الأَحمر، في

الثامن من كانون الأوّل ١٩٤٥، وكتب عليه: «هذا المغلّف ومحتواه، يسلّمان إلى الكردينال «دون مانويل» بطريرك ليشبونة، بعد وفاتي». وظلّ المغلّف في خزنته حتّى عام ١٩٥٧، أي بضعة أشهرٍ قبل وفاته.

عام ١٩٤٤، أبدت الأُخت لوسيّا رغبتها في مقابلة قداسة الحبر الأعظم، والتحدّث إليه، بشأن تكريس روسيّا وأساقفة إسبانيا. وفي عام ١٩٤٦، كانت رئيساتها مستعدّاتٍ للسماح لها بالسفر إلى روما، ولكن رفض سفرها جاء من الفاتيكان.

عندما سلّمت الأُخت لوسيّا الجزء الثالث من السرّ، أعلمت الأُسقف «دا سيلڤا» أنّ بوسعه الاطّلاع عليه، ونشر محتواه، إن هو رأى ذلك مناسبًا. ولكنّه لم يطّلع عليه، ولم ينشر منه شيئًا، غير أنّه اتّفق مع الأُخت لوسيّا على إعلانه، عام ١٩٦٠، أو عقب وفاة الأُخت، إن سبقت وفاتها عام ١٩٦٠.

عام ١٩٥٧ طلبت روما نسخًا عن كلّ ما كتبته الأُخت لوسيّا، فسُلّم المغلّف المتضمّن الجزء الثالث من السرّ إلى السفير البابويّ، في النصف الثاني من شهر آذار. ولكنّ البابا

لوسيّا في أثناء حجّها إلى فاطمة، عام ١٩٤٦

بيّوس الثاني عشر لم يفضّ ذلك المغلّف، فوجده البابا يوحنّا الثالث والعشرون ما زال مختومًا، واطّلع على محتواه، في شهر آب ١٩٥٩، مستعينًا على ترجمته بأشخاصٍ ضليعين في اللغة البرتغاليّة، ولكنّه لم يعبأ بإعلانه، بل أودعه في مخبأٍ حيث لا يطاله أحد.

وفي هذه الأثناء جال تمثال سيّدة فاطمة في إيطاليا، مستثيرًا بركانًا من الحماس، ومستنزلاً طوفانًا من النعَم. ولكنّ البابا لم يُدلِ بأيّ إيضاحٍ حول السرّ، ولم يقم بتكريس روسيّا لقلبَي يسوع ومريم، ولم يدعُ إلى تكريم قلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ. وكان قلب الأُخت لوسيّا ينفطر حزنًا وقلقًا.

ومع أنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني وفّر لخَلَفه، البابا بولس السادس، فرصةً فريدةً لتحقيق رغبة العذراء في تكريس روسيّا لقلب مريم الطاهر، بوجود كلّ الأساقفة مجتمعين في روما، إلاّ أنّ هذا التكريس لم يتمّ للأسباب التي بيّنّاها آنفًا، ولأنّ البابا بولس السادس كان مقتنعًا بأنّ أفعال التكريس التي كان قد قام بها البابا بيّوس الثاني عشر، قد نفّذت رغبة العذراء تنفيذًا كاملاً، لا يستدعي أيّة إضافةٍ.

وزار البابا بولس السادس فاطمة، بمناسبة مرور خمسين سنةً على الظهورات، وبهذه المناسبة، التمست الأُخت لوسيّا أَن تتحدّث إليه على انفرادٍ، كي تذكّره بمطالب العذراء، غير أنّ قداسته كان قد أَعلن أَنّ زيارته إِلى فاطمة ستكون خاطفةً، وبصفةٍ محض شخصيّةٍ. وقد أَوجز رسالة فاطمة بأَنّها دعوةٌ إِلى الصلاة والتوبة، مغفلاً ميزتها الخاصّة، أَي حرص يسوع على تعميم تكريم قلب أُمّه الطاهر، وتكريس روسيّا له. وقد طلب قداسته، بواسطة سفيره في البرتغال، أَن تكون الأُخت لوسيّا حاضرةً، في أَثناء لقائه الجماهير، ولكنّه لم يحدّد موعدًا للقاءٍ خاصٍّ معها.

ولكنّ قداسته باح لصديقه الفيلسوف جان غيتّون بانطباعاته عن زيارته إِلى «كوڤا دا إِيريا»، في ١٣ أَيّار ١٩٦٧، فقال: «زيارتي كانت بمثابة فعل توبة. إِنّها تختلف عن زياراتي الثلاث الأُخرى (إِلى أَماكن أُخرى)، فهي من نمطٍ آخر: وقد رأيت فيها البشريّة، حقًّا». ففي ذلك اليوم، كان قد احتشد في فاطمة، مليون مؤمنٍ حقٍّ، بسطاء وفقراء. في بومباي، أيضًا، كان قد احتشد مليون شخصٍ يحدوهم

الفضول، مليون متفرّجٍ، انتشروا على مساحة عشرين كيلومترًا، في حين تراصّ مؤمنو فاطمة فوق رقعةٍ ضيّقةٍ، فبدوا كتلةً واحدةً تنبض بنفس الروح، روح حبّ العذراء. وطالبت الجموع برؤية لوسيّا، فدعاها قداسته إلى الظهور. وبعد القدّاس، مدّ لها يده، فقبّلتها، وركعت أمامه، فوضع يده اليُسرى على رأسها... ولمّا تبدّد خجلُها، كرّرت التماس محادثته على انفرادٍ. ولكنّ كلّ شيءٍ كان يجري علنًا، وعلى مسمع الجميع، فلم يتسنَّ لها أن تبوح له بشيءٍ، ولا سيّما بعد أن قال لها: «ترين أنّ الوقت غير ملائمٍ. فإن كان لديك ما ترغبين في تبليغي إيّاه، قوليه لأُسقفك، وهو سيبلّغني، كوني واثقةً، وأطيعي أُسقفكِ».

وهتف الحجّاج مطالبين بمشاهدة لوسيّا، فاقتادها الأُسقف إلى واجهة المنصّة، وعندما شاهدها مئات الأُلوف إلى جانب البابا، ضجّوا بهجةً، ودوّى تصفيقهم يشقّ الآفاق، فيما كانت الأُخت لوسيّا تبكي، ومئات الكاميرات تصوّر بكاءها الصامت.

وسُئل قداسته عمّا خلّفته الأُخت في نفسه من انطباعٍ فقال: «إنّها فتاةٌ بسيطةٌ، فلاّحةٌ، لا تعاني أيّة عقدةٍ».

ولم تكن الأُخت قد وطئت أَرض فاطمة، منذ أَيّار ١٩٤٦، فكانت زيارتها لها في ذلك اليوم، الثالث عشر من أَيّار ١٩٦٧، حجًّا حقًّا. فجالت في أَرجاء الكاتدرائيّة التي لم تكن قد رأتها عن كثبٍ، وتخشّعت أَمام قبرَيْ فرنشيسكو وهياسنت. وبكت أَمام مرقد هذه الأَخيرة، إِذ ربّما تذكّرت أَنّها لم تتمكّن، بعدُ، من تحقيق وصيّتها بتعميم تكريم قلب مريم الطاهر في العالم.

واستمرّ فرض العزلة على الأُخت لوسيّا، فلم يكن يُسمح بمشاهدتها أَو التحدّث إِليها إِلاّ لأَفراد أُسرتها، وإِلاّ استوجب الأَمر إِذنًا صريحًا من الفاتيكان. غير أَنّ الكرادلة الذين يملكون إِذنًا دائمًا واستثنائيًّا بالدخول إِلى محابس الكرمليّات، والذين تسنّى لهم محادثتها، قد أَجمعوا على الإِشادة ببساطتها واتّقاد ذكائها، وتقواها، وتواضعها، وإِشعاع الفائق الطبيعة منها.

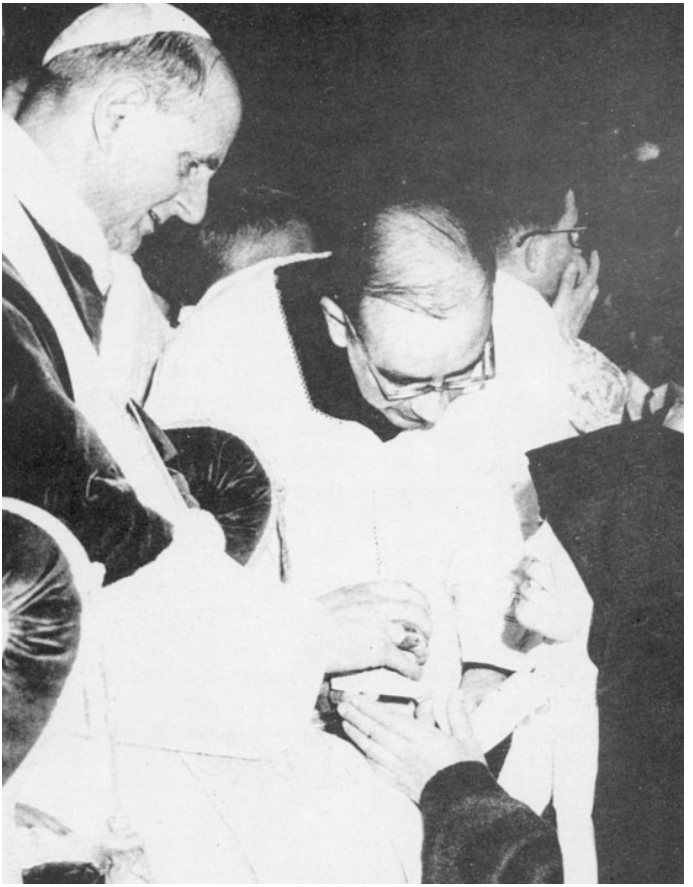

البابا بولس السادس يتحدّث إلى الأخت لوسيّا، ١٣ أيّار ١٩٦٧

البابا يوحنّا بولس الأَوّل، وسرّ فاطمة

عام ١٩٧٧، شخص الكردينال ألبينو لوشياني، بطريرك البندقيّة، آنذاك، إلى فاطمة، على رأس موكبٍ من الحجّاج، منهم نحو عشرة كهنةٍ، بمناسبة مرور ستّين عامًا على ظهورات «كوڤا دا إيريا». وقد اغتنم هذه السانحة، فقابل الأُخت لوسيّا، وتحدّث معها مدى زهاء ساعتين. وإثر هذه المقابلة، بدا شديد الشحوب، وخلال الأَيّام اللاحقة ظهرت عليه أَمارات التأثّر البالغ. واتّضح لجميع معارفه، وحتّى لأَخيه وزوجة أَخيه، تغيّر حاله، واستغراقه في التفكير، والجدّ، والقلق، والهواجس، حتّى غدا لا يستسيغ طعامًا، ويؤثر الخلوة. وعندما يُستفسر عن سبب قلقه، كان يجيب: «كنت أُعمل الفكر في ما باحت لي به الأُخت لوسيّا، في «كويمبرا». ويضيف «إِنّه لسرٌّ رهيبٌ!».

ويتّضح من مذكّراته حول حجّه، ذاك، إلى فاطمة إعجابه بشخصيّة الأُخت لوسيّا، وبخطورة الحوار الذي عقده معها. كان يعدّها قدّيسةً، ويصفها بأنّها «كلّيّةٌ» (راديكاليّةٌ) على غرار القدّيسين، حريصةٌ على «الكلّ أو لا شيء»، فذلك هو منهج من يبتغي أن يكون بأكمله لله وحده.

تانِك النفسان النقيّتان، المستغرقتان في الربّ، سرعان ما تلاقتا وتفاهمتا. وبدا واضحًا، منذ لقائهما الأوّل، اقتناع الكردينال الكامل بخطورة رسالة فاطمة، وباهتمام الأُخت لوسيّا بمشاكل الكنيسة الخطيرة.

انتُخب الكردينال لوشياني حبرًا أعظم في ٢٦ آب ١٩٧٨، وخلال حبريّته التي لم تتجاوز ثلاثةً وثلاثين يومًا، دأب على إعداد النفوس والأذهان للترحيب برسالة فاطمة، ولاستيعاب السرّ الثالث. ولكنّ الموت اغتاله، قبل أن يحقّق هذه الرغبة.

البابا يوحنّا بولس الثاني وسرّ فاطمة

انتُخب حبرًا أعظم في ١٦ تشرين الأوّل ١٩٧٨، وكان مطّلعًا على ظهورات فاطمة، ولطالما عانى، هو، وموطنه الأصليّ بولونيا، من الاضطهاد الشيوعيّ. غير أنّه، في مطلع عهده، آثر مواصلة السير في خطى أسلافه، حرصًا منه على عدم إفساد الحوار المسكونيّ الناشط حينذاك.

وجرت محاولة اغتياله، في ١٣ أيّار ١٩٨١، أي في ذكرى ظهور سيّدة فاطمة الأوّل، على يد المرتزق التركيّ «علي أغشا»، بتحريضٍ وتمويلٍ من مسؤولين شيوعيّين. فهزّته الصدفة، وفيما كان راقدًا في مستشفى جيميلّي، في روما، استحضر وثائق ظهورات فاطمة، فأُحضر له كتاب «وثائق»، حيث جمع الأب «أنطونيو ماريا مارتس» كلّ كتابات الأُخت

لوسيّا. ولم يكن قد انصرم شهرٌ على محاولة اغتياله، عندما أَوكل الأُسرة البشريّة إِلى حماية العذراء الأُموميّة.

في ٨ آذار ١٩٨٢ أَعلن قداسته عن نيّته الشخوص إِلى فاطمة في ١٣ أَيّار، وطلب من سفير الفاتيكان في ليشبونة الإِعداد لمقابلته الأُخت لوسيّا. وتمّت هذه المقابلة بحضور صديقٍ للسفير البابويّ، يتولّى الرئاسة الفخريّة للجمعيّة الإِفخارستيّة العالميّة، وأُسقف ليريا، الذي، رغبةً منه في عدم إِزعاج البابا بإِثارة قضيّة تكريس روسيّا، أَكّد للأُخت لوسيّا أَنّ البابا بيّوس الثاني عشر كان قد كرّس العالم مع ذكرٍ خاصٍّ لروسيّا، عام ١٩٤٢. إِذن، يمكن اعتبار أَنّ رغبة العذراء قد تحقّقت. ولكنّ الأُخت لوسيّا التزمت الصمت، مشيرةً بإِصبعها إِلى ما يُشعر بعدم موافقتها. ثمّ قالت إِنّ تحقيق مطلب العذراء يقتضي استدعاء جميع الأَساقفة إِلى روما، أَو إِلى أَيّ مكانٍ آخر، أَو أَن يُكلّف كلٌّ منهم بإِقامة احتفالٍ علنيٍّ في أَبرشيّته، للتكفير، ولتكريس روسيّا لقلب مريم الطاهر. وكانت الأُخت لوسيّا تؤثر الخيار الثاني؛ وفي هذه الحال، على البابا أَن يحدّد تاريخ الاحتفال وتوقيته...

قبل شخوصه إلى فاطمة اطّلع البابا على الجزء الثالث من السرّ، مستعينًا بأُسقفٍ برتغاليٍّ على استبيان كلّ دقائقه. وفي هذه الأثناء، اختلت الأُخت لوسيّا، بين السابع والثاني عشر من أيّار ١٩٨٢، وامتنعت عن كلّ مقابلةٍ، عاكفةً على إعداد مذكّرةٍ، آملةً في تقديمها للأب الأقدس، مع أنّه لم يكن يساورها أيّ وهمٍ حول إمكانيّة تكريس روسيّا. وقد أسرّت لمقرَّبين منها أنّ أساقفة العالم لم يكونوا، بعدُ، مستعدّين لذلك التكريس.

وفي الواقع اكتفى الكردينال كاتساروللّي، عبر رسالةٍ وجّهها إلى أساقفة العالم، في ٢٠ نيسان ١٩٨٢، بتبليغهم أنّ الأب الأقدس راغبٌ، خلال زيارته إلى فاطمة، في ١٣ أيّار القادم، شكر العذراء لإنقاذها حياته من محاولة اغتياله، وينوي، في الآن عينه، أن يجدّد، باتّحادٍ روحيٍّ مع جميع أساقفة العالم، فعلَي التكريس اللّذين قام بهما البابا بيّوس الثاني عشر.

في الساعة الثامنة من صباح ١٣ أيّار، وفيما كانت الأُخت

لوسيّا تلج المكتب الذي كان البابا ينتظرها فيه، تدافع كثيرون متبرّعين بمهمّة الترجمة. غير أَنّ كلاًّ من البابا والأُخت ردّاهم، مؤكّدَيْن أَنّه إِذا استحال تفاهمهما باللغة البرتغاليّة، فسيتفاهمان باللغة الإِسبانيّة. وقد بادر الأَبّ الأَقدس بالقول: «يا ابنتي، لقد منحني المولى نعمة التحدّث إِليكِ، التي طالما تمنّيتُها». وقدّمت له الأُخت المذكّرة التي كانت قد أَعدّتها. وفي خلال المقابلة التي دامت نحو خمسٍ وعشرين دقيقةً، بلّغت البابا ما كان عليها تبليغه إِيّاه، فحدّثته عن الجزء الثالث من السرّ، وعن إِرادة الله في إِذاعته. ولكنّه ردّ: «ليس ضروريًّا ولا حكيمًا إِعلان محتوى هذا السرّ، الآن، فالعالم لن يستوعبه». أَمّا عن تكريس روسيّا، فقد وعد الحبر الأَعظم بالتحدّث عن «كلّ هذه الأُمور»، مع الأَساقفة، في أَثناء سينودُس خريف ١٩٨٣.

ولمّا سألته عن مصير تطويب رفيقَيْها وقريبَيْها، فرنشيسكو وهياسنت مارتو، اقتصر على القول: «صلّي، يا ابنتي، كي يتحقّق ذلك في خلال حياتك وحياتي». وقد تحقّقت تلك الأُمنية، فعلاً، إِذ أَعلن قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني

الأخت لوسيّا مع البابا يوحنّا بولس الثاني

تطويب كلٍّ من فرنشيسكو وهياسنت في ١٣ أيّار ٢٠٠٠، بحضور الأُخت لوسيّا.

وقد رأى البعض في حركة البريسترويكا التي أطلقها غورباتشوف، وفي تبدّل موقف السلطات الروسيّة من الكنيسة، ثمرةً لأفعال التكريس التي قام بها الباباوات، منذ بيّوس الثاني عشر حتّى يوحنّا بولس الثاني.

وربّما استجابةً لإلحاحها، وبقدر ما كانت مسؤوليّاته تتيح له، أعلن البابا يوحنّا بولس الثاني، بتاريخ ٢٥ آذار ١٩٨٤، في ساحة كاتدرائيّة القدّيس بطرس في الفاتيكان، وأمام تمثال سيّدة فاطمة، التكريس التالي:

«تحت ملاذ رحمتك نلتجئ، يا أُمّ الله كلّيّة القداسة»....

«بالاتّحاد مع جميع رعاة الكنيسة... وبرباط هذه الوحدة نتلفّظ بكلمات فعل التكريس هذا، الذي نحاول به، مرَّةً أُخرى، جمع آمال الكنيسة وهواجسها، في عالم هذا الزمن.

«لأربعين سنةً خلت – ثمّ بعد عشر سنواتٍ – كان خادمك البابا بيّوس الثاني عشر، الذي شهد مِحَن الأُسرة البشريّة

الأَليمة، قد أَوكل إِلى قلبك المنزّه من كلّ لوثةٍ، وكرّس له العالم أَجمع، وبخاصّةٍ الشعوب التي، من جرّاء أَوضاعها، تحظى، على نحوٍ خاصٍّ، بحبّك وعطفك. إِنّ عالم هؤلاء القوم، وهذه الشعوب ماثلٌ، أَيضًا، أَمام أَبصارنا اليوم، عالم الأَلفيّة الثانية المشرفة على غروبها، العالم المعاصر، عالمنا!

«إِنّ الكنيسة، بمجمعها الفاتيكانيّ الثاني، مستذكرةً كلام الربّ: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم... وها أَنذا معكم كلّ الأَيّام، إِلى انقضاء الدهر»، قد استعادت وعيها لرسالتها هذه في العالم، ولذلك، يا أُمّ البشر والشعوب، أَنت الملمّة بكلّ آلامهم، أَنت التي تتحسَّس، بشعورٍ أُموميٍّ، كلّ الصراعات الناشبة بين الخير والشرّ، بين النور والظلمات، التي تخضّ العالم المعاصر، تقبّلي النداء الذي نوجّهه، مباشرةً، إِلى قلبك، بدافعٍ من الروح القدس؛ بحبّك، حبّ أُمّ الربّ وخادمته، عانقي عالمنا البشريّ الذي نقدّمه ونكرّسه لك، فيما يؤرّقنا القلق على مصير البشر والأُمم، مصيرهم الأَرضيّ والأَبديّ. إِنّنا نقدّم ونكرّس لك، على نحوٍ خاصٍّ، البشر والأُمم التي تحتاج، حاجةً خاصّةً، إِلى هذه التقدمة وهذا

التكريس. «تحت ملاذ رحمتك نلتجئ، يا أُمّ الله كلّيّة القداسة، فلا تردّي دعاءنا، فيما نحن نواجه المِحَن».

«أمامك، يا أُمّ المسيح، وأمام قلبك المنزّه من كلّ لوثةٍ، نودّ، اليوم، مع الكنيسة كلّها، أن نتّحد بتكريس ابنك لأبيه، حبًّا بنا، إذ قال: «لأجلهم، أُقدّس نفسي، لكي يكونوا، هم أيضًا، مقدَّسين بالحقّ». إنّنا نريد أن نتّحد بمخلّصنا في هذا التكريس، من أجل العالم، ومن أجل البشر، فلهذا التكريس، في قلبه الإلهيّ، قدرةٌ على الفوز بالغفران، وعلى تحقيق التعويض. وإنّ قدرة هذا التكريس تدوم في كلّ الأزمنة، وتشمل جميع البشر، والشعوب، والأُمم، وتتغلّب على كلّ الشرّ الذي بوسع روح الظلمات إيقاظه في قلب الإنسان وفي تاريخه، والذي أيقظه، فعلاً، في حقبتنا. ما أعمق شعورنا بضرورة هذا التكريس للبشريّة وللعالم، لعالمنا المعاصر، بالاتّحاد مع المسيح نفسه! فعلى العالم أن يسهم في عمل المسيح الفدائيّ، بواسطة الكنيسة.

«في هذه السنة المقدّسة، فلتكوني مباركةً فوق كلّ خليقةٍ،

أَنت خادمة الربّ، التي استجابت لهذا النداء، ولك التحيّة أَنتِ التي اتّحدت، اتّحادًا كاملاً، بتكريس ابنك الفدائيّ! يا أُمّ الكنيسة، أَرشدي شعب اللّه إِلى دروب الإِيمان، والرجاء، والمحبّة!...

«وإِذ نوكل إِليك، يا أُمّنا، جميع البشر والشعوب، نوكل إِليك، أَيضًا، تكريس العالم نفسه، ونودعه قلبك الأُموميّ. فيا أَيّها القلب المنزّه من كلّ لوثةٍ، ساعدنا على التغلّب على نُذُر الشرّ الذي يترسّخ، بلا عائقٍ، في قلوب بشر اليوم، والذي، بآثاره التي يتعذّر قياسها، ترينُ، بكلّ وقرها، على الحياة الحاضرة، ولكأَنّها تسدّ دروب المستقبل!

من المجاعة والحرب، أَنقذينا!

من الحرب النوويّة، ومن الإِفناء الذاتيّ اللامحدود، ومن كلّ صنوف الحروب، أَنقذينا!

من الخطايا بحقّ حياة الإِنسان، منذ لحظاتها الأولى، أَنقذينا!

من الكراهيّة، ومن امتهان كرامة أَبناء اللّه، أَنقذينا!

من استسهال دوس وصايا اللّه بأَرجلنا، أَنقذينا!

من محاولة طمس حقيقة اللّه في قلوب البشر، أَنقذينا!

من فقدان التمييز بين الخير والشرّ، أَنقذينا!

من الخطيئة بحقّ الروح القدس، أَنقذينا!

«أَصغي، يا أُمّ المسيح، إِلى هذه الصرخة المثقلة بكلّ آلام البشر أَجمعين، والمثقلة بآلام مجتمعاتٍ بأَكملها! ساعدينا، بقدرة الروح القدس، على قهر كلّ خطيئةٍ، خطيئة الإِنسان، و«خطيئة العالم»، الخطيئة بكلّ أَشكالها. ولتتجلَّ، مرَّةً أُخرى، في تاريخ العالم، قدرة العذراء الخلاصيّة اللامحدودة، قدرة الحبّ الرحيم! وليلجم الحبُّ الشرَّ، ويحوّل الضمائر، وليشرق، في قلبك كلّيّ الطهر، للجميع، نور الرجاء!»

ثمّ زار البابا يوحنّا بولس الثاني فاطمة، مرَّةً أُخرى، في ١٣ آب ٢٠٠٠، حيث احتفل بقدّاسٍ حضره زهاء مليون مؤمنٍ. وفي أَثناء القدّاس، أَعلن الكردينال سودانو – الذي كان يتولّى مهامّ وزير خارجيّة الفاتيكان – أَنّ قداسته كلّف

أَمين سرّه مونسينيور بيرتوني، والكردينال رتسنغر (البابا الحاليّ، بينيدكتُس السادس عشر) بإِعلان الجزء الثالث من سرّ فاطمة. وقد تمّ هذا الإِعلان في ٢٦ حزيران ٢٠٠٠، وإِليكم ترجمة نصّه:

«الجزء الثالث من السرّ، الموحى به في ١٣ تمّوز ١٩١٧، في «كوڤا دا إِيريا» فاطمة (كما دوّنته الأُخت لوسيّا):

«إِنّني أَكتب إِطاعةً لك يا إِلهي، الذي يأمرني بواسطة سيادة أُسقف ليرا الجزيل الوقار، وبواسطة أُمّك الكلّيّة القداسة، التي هي، أَيضًا، أُمّي.

«بعد جزئَي السرّ اللّذين حسرتُ عنهما القناع، رأينا، على جانب سيّدتنا الأَيسر، وعلى مستوًى يعلوها قليلاً، ملاكًا يحمل، في يده اليُسرى، سيفًا من نارٍ، يتوهّج، وينفث شررًا، وكأَنّه يهمّ بإِحراق العالم. ولكنّ تلك النار انطفأت حالما لامسها البهاء المنبعث من يد السيّدة العذراء اليمنى التي امتدّت نحوها. وأَشار الملاك إِلى الأَرض بيده اليمنى، وهتف بصوتٍ جهيرٍ: «التوبة، التوبة، التوبة!». وحينئذٍ شاهدنا

وسط نورٍ جمٍّ، هو اللّه، كما يشاهد الناس أَنفسهم في مرآةٍ، عندما يمرّون أَمامها، أُسقفًا في ثيابٍ بيضاء، وساورنا انطباعٌ بأَنّه الأَب الأَقدس. وكان أَساقفةٌ آخرون، وكهنةٌ، ورهبانٌ وراهباتٌ يتسلّقون جبلاً وعرًا، انتصب، على قمّته صليبٌ كبيرٌ من جذوعٍ سنديان الفلّين المغطّاة بلحائها.

«قبل بلوغه القمّة، اجتاز الأَب الأَقدس مدينةً دُمّر نصفها. كان يرتجف، ويترنّح في مشيته، رازحًا تحت وِقر الآلام والغمّ، مصلّيًا من أَجل نفوس الجثث التي كانت تعترض طريقه. ولّما انتهى إِلى قمّة الجبل، وفيما كان خاشعًا عند أَقدام الصليب الكبير، أَصابته ثلّةٌ من الجنود بعدّة طلقاتٍ ناريّةٍ، وبسهامٍ، فأَردته قتيلاً. وبهذه الطريقة عينها، لقي الأَساقفة والكهنة، والرهبان والراهبات، وعلمانيّون كثرٌ، رجالٌ ونساءٌ من مختلف الطبقات والمستويات، حتفَهم، الواحد إِثر الآخر.

«وتحت ذراعي الصليب كان يقف ملاكان يحمل كلٌّ منهما مرشّةً من الكريستال، يجمعان فيها دماء الشهداء، ويرويان بها النفوس القادمة إِلى اللّه».

هذا الإعلان الذي طالما انتظره الناس لم يُحدثْ سوى أَصداء ضعيفة، ولم يكن له سوى وقعٍ ضئيلٍ، ولا سيّما أَنّ كثيرين كانوا قد تكهّنوا بأَنّ الجزء الثالث من سرّ فاطمة ينبئ بكوارث جسيمةٍ، وربّما بنهاية العالم. والواقع أَنّه أَنبأ بما سيعانيه الإيمان المسيحيّ والمؤمنون من اضطهاداتٍ شرسةٍ.

وقد ارتأى الكردينال راتسنغر، الذي كلّفه البابا يوحنّا بولس الثاني بتفسير هذا الجزء من السرّ، أَنّه لا يسوغ فيه التفسير الحرفيّ، بل ينبغي اعتباره رمزيًّا. فهو يرمز إِلى ما تعرّضت له الكنيسة، في القرن العشرين، من اضطهاداتٍ، ولا سيّما من قِبَل الشيوعيّة الملحدة، وكان البابا يوحنّا بولس الثاني أَحد أَهدافها، وكاد يكون ضحيّتها، لو لم تتداركه السيّدة العذراء بحمايتها، وكانت بلاده، بولونيا، وبلدانٌ أُخرى كثيرةٌ، مسرحًا لفظاعاتها، ودليلاً على أَكاذيبها، فقد ادّعت مناصرة العمّال، ولم تتورّع عن اعتقال رئيس نقابة العمّال البولونيّين، لمجرّد كونه مؤمنًا ملتزمًا.

وبالإِجمال، كان ذلك الجزء من السرّ تصديقًا لقول

يسوع: «حينئذٍ يسلمونكم إلى قبضة الضيق، ويقتلونكم، ويبغضكم جميع الأُمم، من أَجل اسمي» (متّى ٢٤:٩)، «فإذا كانوا قد اضطهدوني، سيضطهدونكم... كلّ هذا سيفعلونه بكم من أَجل اسمي...» (يوحنّا٢٠:١)

وبالإِجمال يحذّر سرّ فاطمة، بأَجزائه الثلاثة، من إِغراءات عالَمٍ يحتقر الإِيمان، ولا يبالي إِلاّ بالقيم الماديّة والمُتَع. ففي جزئه الأَوّل يذكّر بمصير الإِنسان المدعوّ إِلى القداسة، وإِلى ملء الحبّ أَي إِلى اللّه. فمن يرفض اللّه وحبّه، يسلم نفسه إِلى نيران الأَضاليل المحرقة والمدمّرة المتمثّلة بجهنّم.

أَمّا الجزء الثاني من السرّ فيدعو إِلى التكفير عن الإِهانات التي تُلحَق بقلبَيْ يسوع ومريم الطاهرين، بممارسة أَسرار التوبة والمناولة، وبتكريس الذات للّه، بحبٍّ، وبالالتزام الكلّيّ بالخدمة. وقد ضرب الرؤاة الثلاثة أَروع مثالٍ في الاستجابة لهذه الدعوة، في حين زعم كثيرون من المسيحيّين، بل حتّى من لاهوتيّيهم، بتفرّد الماركسيّة بالقدرة على تحقيق العدالة!

أَمّا الجزء الثالث، الذي ارتدى طابعًا مَجازيًّا ورمزيًّا، فقد

أَشار إلى استشهاد جماهير غفيرةٍ من المسيحيّين، الذي طالما تجاهله العالم.

ومع ذلك، لم تَغب عن السرّ نغمة رجاءٍ منعشةٌ، فقد أَكَّدت العذراء أَنّ قلبها الطاهر سينتصر في نهاية الشوط، وأَنّ البشريّة ستنعم بفترة سلام. إِنّه الصراع بين التنّين والمرأة، بين إِبليس والعذراء.

شأنها شأن كلّ الظواهر النبويّة، فائقة الطبيعة، تعرَّضت ظاهرة فاطمة لسجالاتٍ لاهوتيّةٍ. غير أَنّ انهيار النظام الشيوعيّ الذي كان يبدو شديد المنعة، ومؤهَّلاً للخلود، قد جاء مصداقًا ودعمًا لرسائل سيّدة فاطمة.

الأخت الكرمليّة «ماريّا لوسيّا القلب الطاهر» ١٣ أيّار ١٩٦٧

لوسيّا راهبةٌ كرمليّةٌ

بين عامَيْ ١٩٤٦ و١٩٤٨، أُمرت الأُخت لوسيّا باستقبال كهنةٍ وكتّابٍ راغبين في وضع كُتُبٍ عن حدث فاطمة، وبمراجعة كتبٍ صدرت بشأنه، وتصحيح المعلومات الخاطئة التي وردت فيها.

في هذه الأَثناء، ما انفكّت تراودها الرغبة في الانضواء إلى جمعيّة الكرمليّات، كي يتسنّى لها الانصراف إلى حياة الخلوة، والتأمّل، والعبادة. وفي أَثناء زيارتها إلى فاطمة في ٢١ و٢٢ أَيّار ١٩٤٦، حيث سعدت بمشاهدة الأَماكن التي باركتها العذراء، كانت ترمق من نافذةٍ، ديرَ الكرمليّات، متمنّيةً أَن يؤذن لها بالانتقال إِليه. وقد طلب البابا بيّوس الثاني عشر شخصيًّا من أُسقف پورتو تسهيل هذا الانتقال، الذي لاقى مقاومةً عنيدةً من رئيسات الأُخت لوسيّا، ومن

أُسقف ليرا. وأَخيرًا تمّ انتقالها إلى كرمل «كويمبرا» (Coimbra)، بتاريخ الخامس والعشرين من شهر آذار ١٩٤٨، الذي وافق عيد البشارة، ويوم خميس أُسبوع الآلام. وتحوّل اسمها من «ماريّا دوريس» إلى «ماريّا لوسيّا القلب الأَقدس الطاهر». وأُبرزت نذورها في ٣١ أَيّار ١٩٤٩، وكان لها من العمر، حينذاك، اثنتان وأَربعون سنةً.

في وضعها الجديد، هذا، كانت قد ماتت عن العالم، ولكنّها ما زالت تتحرّق تمنّيًا برؤية رغبات ملكة السماء محقّقةً على أَكمل وجه، ولا سيّما في ما يتعلّق بتعميم تكريم قلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ، وطقوس التكفير عمّا يُلحق به من إِهاناتٍ، وبتكريس روسيّا لقلب مريم الطاهر، على نحو ما طالبت العذراء، وكانت لا تني تكلّف المقرّبين من الحبر الأَعظم بتذكيره برغبات العذراء هذه، وإِلاّ لن ترتدّ روسيّا، ولن يعهد العالم السلام.

في ١٩٥٧/١٢/٢٦، كان لها لقاءٌ مع الأَب «فوينتِس» (Fuentes) المكسيكيّ الذي كان يعتزم تولّي دعوى تطويب

رفيقيها وقريبيها فرنشيسكو وهياسنت، فطلبت أَن يُخبر:

«إِنّ إِبليس يشنّ على العذراء حربًا حاسمةً. وبما أَنّه عالمٌ بما يغيظ اللّه أَكثر من أَيّ شيءٍ، وبما هو كفيلٌ بإِهلاك أَكبر عدد من النفوس، في أَقصر مدّةٍ، فهو يسعى، جاهدًا، إِلى استمالة النفوس المكرّسة للّه، إِذ إِنّه، بذلك، يُشيع الحيرة واليأس في النفوس، ويستولي عليها بمزيدٍ من اليُسر.

«ابنا عمّتي فرنشيسكو وهياسنت قد ضحّيا بذاتهما، لأَنّهما شهدا العذراء شديدة الحزن، في كلّ ظهوراتها. فهي لم تبتسم لنا، يومًا. وهذا الأَسى الذي لحظناه عندها، بسبب الإِهانات الملحقة باللّه، والعقابات التي يعرِّض لها الخطأة ذواتهم، كانت تنفذ إِلى أَعماق نفسنا، فتحار مخيّلتنا الطفلة في ابتكار الصلوات والتضحيات.

«الأَمر الآخر الذي دفع الطفلين نحو القداسة هو رؤية جهنّم.... ولذلك مهمّتي هي... أَن أُبيّن للجميع الخطر الداهم الذي نتعرّض، من خلاله، إِلى هلاك نفسنا الأَبديّ، إِن نحن بقينا متشبّثين بالخطيئة...

إقرار كنسيّ لبقايا فرنسوا (١٩٥٢/٢/١٧)

«قالت العذراء إنّ إبليس يشنّ المعركة الحاسمة، وإنّ اللّه يهب العالم العلاجَيْن الأقصيين: الورديّة المقدّسة، وتكريم قلب مريم الطاهر، المنزّه من كلّ لوثةٍ... إنّ اللّه يقدّم لنا وسيلة الخلاص القصوى: أُمّه كلّيّة القداسة. فإن نحن ازدرينا هذه الوسيلة أو أعرضنا عنها، فسنُحرم غفران السماء، لأنّنا نكون قد اقترفنا ما يدعوه الإنجيل الخطيئة بحقّ الروح القدس، أي رفض الخلاص المقدّم لنا، رفضًا صريحًا، عن سابق وعيٍ وتصميم. فلنذكر أنّ يسوع هو ابنٌ بارٌّ، وأنّه لا يرتضي أن نهين أو أن نزدري أُمّه كلّيّة القداسة...

«بواسطة الورديّة المقدّسة، سنخلّص نفوسنا، وسنقدّسها، وسنعزّي ربّنا، وسننال لنفوسٍ كثيرةٍ الخلاص.

«وعلينا، أخيرًا، أن نكرّم قلب أُمّنا كلّيّة القداسة مريم، المنزّه من كلّ لوثةٍ، معتبرين إيّاها موئل الرحمة، والعطف، والغفران، والباب الأكيد لولوج السماء...»

توفّيت الأُخت لوسيّا في ١٣ شباط ٢٠٠٥، ولها من العمر سبعةٌ وتسعون عامًا. وكان البابا يوحنّا بولس الثاني

بعد تطويب فرنسوا وياسينت،
يقوم قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني
بزيارة قبرَي الطّوباويّين الجديدَين

يتمنّى تطويبها مع رفيقيها فرنشيسكو وهياسنت.

وقد شهد فيها الكردينال بيرتوني، أمين سرّ البابا، الذي كُلّف باستجوابها بشأن سرّ فاطمة الثالث:

«لقد خلّفت لديّ ذكرى رائعةً. إنّها كالشمس تشعّ دفئًا ونورًا، وهي، في الآن عينه، بسيطةٌ، تتواصل بيُسرٍ مع الآخرين. ومع أنّها اؤتُمنت على رسالةٍ جليلةٍ، إلاّ أنّها قريبةٌ من جميع المتألّمين».

الأخت لوسيّا (٨٥ سنة)
تصنع مسبحة في كرمل «كوئمبري» ٢٨ آذار ١٩٩١

الفصل الخامس

رسائل فاطمة وثمارها

رسائل فاطمة والإنجيل

غاية ظهورات العذراء هي تبليغ رسائل خلاصيّةٍ. وقد زخرت ظهورات فاطمة، الجماعيّة والفرديّة، بمثل هذه الرسائل. وإن كان معيار مصداقيّة الرسائل وجدواها هو توافقها مع تعاليم الإنجيل، فلا مراء أنّ محتوى رسائل فاطمة هو إنجيليٌّ صرفٌ. وقد وُصفت هذه الرسائل بأنّها «الإنجيل بحسب مريم». ولا بدْعَ في ذلك، فما من مخلوقٍ مؤهّلٍ للتحدّث، بكفاءةٍ وحبٍّ، عن الحقائق التي علّمها يسوع، خيرًا من أُمّه التي كانت وسيلة تجسّده، وشريكة فدائه للبشر.

أقوال سيّدة فاطمة ونداءاتها هي التعاليم الإنجيليّة التي تمثّل معرفتُها والعملُ بمقتضاها، ضمان الخلاص. وهي أكثر ما يحتاج إليه إنسان اليوم لكي ينجو من الخداع، ويستعيد كرامته المهدورة، في حجّه الأرضيّ. إنّها، على حدّ قول

الشاعر بول كلوديل: «تفجُّر فائق الطبيعة العظيم».

إنّها الردّ الحازم على البدَع التي تنكر حقوق الله على الإنسان، وسدٌّ في وجه مدّ الأضاليل التي انتشرت في الأزمنة الحديثة، مفسدةً الأذهان والأخلاق.

إنّها إدانةٌ للخطيئة، مصدر كلّ الشرور، وفضحٌ لعواقبها الوبيلة على المجتمعات والأُسر، والأفراد؛ وهي تحذيرٌ للمسيحيّين، وللبشر أجمعين، من مخاطر المادّيّة الملحدة التي تسبّب جفاف النفوس، ومن أضاليل الإيديولوجيّات الدخيلة، والبدَع؛ وهي دعوةٌ إلى الصلاة، والتجرّد، ونقاء السلوك، والتقشُّف، أي إلى العلاج الوحيد الكفيل بالانعتاق من عبوديّة غوايات اليُسر، والمتعة، والرفاه المادّيّ، التي لا يسوغ أن تكون غاية الحياة الوحيدة، إذ إنّها تهدّد بالإعراض عن الخير الأبديّ.

إنّها تذكيرٌ بالعقائد الجوهريّة:

– سرّ الثالوث الأقدس،

– الإيمان، والرجاء، والمحبّة،

– واقع الحضور الإفخارستيّ

– المناولة المقدّسة، ودورها التعويضيّ، تكفيرًا عن خطايا البشر،

– تكريم قلب مريم الطاهر، ملجأ البشر، ومرفأ الخلاص،

– الخطيئة، والتوبة، وضرورة الصلاة، من أَجل الحصول على النِعَم الإلهيّة،

– وجود السماء، والمطهر، وجهنّم، وعدل الله ورحمته،

– الخضوع للكنيسة ولتعاليمها.

بالإجمال، توخّت العذراء، من خلال ظهوراتها ورسائلها في فاطمة، إعادة البشر إلى سُبُل الإنجيل، إن هم راموا الانعتاق من خطاياهم، وتفادي الكوارث التي يستجلبونها على ذواتهم.

ومن الممارسات الأساسيّة التي أَمعنت رسائل فاطمة في الدعوة إليها:

الصلاة

الصلاة حوارٌ مع الله يمتزج فيه التسبيح، والتأمّل، والشكر، والحبّ. والحوار يصبح صلاةً، عندما نتصرّف مع الله تصرّف ابنٍ مع أبيه.

والصلاة تبادل مشاعر حبٍّ مع الله، ومحاولةٌ للإيغال في معرفته. ونحن نشرع نعرف الله، عندما نكلّمه في صمت قلوبنا، وعندما نصغي إليه بانتباهٍ.

الصلاة هي الرغبة في الله، وفي الشعور بحضوره، من أجل عيش علاقة حبٍّ معه. غير أنّ الإنسان الذي يتّخذ من المصلحة المادّيّة هدفًا وحيدًا لوجوده، يفقد معنى الصلاة، وطعمها، ويقامر بمصيره الأبديّ، ويتعرّض للإخفاق حتّى على المستوى الدنيويّ، لأنّ الصلاة منبع نورٍ، ومصدر قوّةٍ تؤثّر في كلّ مظاهر الحياة.

والعذراء، إذ تهيب بنا أن نصلّي، تعيد إلى نفوسنا «الرغبة في الله»، وتساعدنا على اقتفاء خطى ابنها الذي يسير معنا، كي يجعلنا ننمو في اكتشاف حبّ الآب.

ظهورات فاطمة استُهِلَّت بدعوة الملاك: «صلّوا معي!». وبتعليمه الرؤاة الصغار صلاة: «يا إلهي، إنّي أومن بك، وأعبدك، وأرجوك، وأحبّك...». وفي ظهوره الثاني، قال الملاك: «صلّوا، أمعنوا في الصلاة، وقدّموا للعليّ، باستمرارٍ، صلواتٍ وتضحياتٍ». وهذا يُظهر ضرورة الصلاة من أجل تجنّب الويلات. وفي ظهوره الثالث تجلّت الصلاة للثالوث الأقدس، عبادةً، وتقدمةً لجسد يسوع ودمه الحاضرين في القربان، ضحيّة تكفيرٍ عن لامبالاة البشر، وعن خطاياهم، والأرجاس التي يرتكبونها.

وفي رسائل فاطمة، تتجلّى الصلاة شهادة حبٍّ ومصالحةٍ مع الله. في ظهوراتها الستّة الجماعيّة، ما انفكّت العذراء تقتضي من الرؤاة الصغار المثابرة على الصلاة، وعلى تلاوة «الورديّة المقدّسة»، يوميًّا. وعلّمتهم دعاءً: «يا يسوعي، اغفر

لنا، واحمِنا من نار جهنّم. قُدْ إلى الفردوس، جميع النفوس، وأَغث، خاصّةً، تلك التي هي في أَشدّ حاجةٍ إلى رحمتك».

والصلاة، في رسائل فاطمة، وسيلة تجدّدٍ روحيٍّ.

وهي، إلى ذلك، أَكثر الوسائل جدوى لمقاومة الخطيئة. بها يعترف الإنسان بحقوق الله عليه، ويستدعي رحمته.

وقد تحوّلت «كوڤا دا إيريا» إلى مركزٍ عالميٍّ هامٍّ لصلواتٍ بشتّى لغات العالَم تقدّم لله شهادات عبادةٍ وحبٍّ، تجأر طالبةً من الربّ، بشفاعة أُمّه وأُمّنا مريم، ما نحتاج إليه من سلامٍ، ورحمةٍ، وحبٍّ.

الارتداد والتوبة

الارتداد هو الرجوع عن طريق الضلال والشرّ، وإرادة إعادة الحبّ إلى الحياة، وإعادة الله إلى المكانة التي أُقصي عنها.

بدء الخلاص يكمن في الاعتراف بالشرّ المرتكب، وهذا الاعتراف هو دليل تواضع، كما أنّ الإياب إلى طريق الحقّ دليل عظمةٍ واستقامةٍ. إنّه عودة الفرح المفقود إلى النفس، وترميم حياة النور بعد الانغماس في الحمأة. وهو مرادفٌ للتوبة والتطهّر.

الانعتاق من ربقة الخطيئة قرارٌ يملأ السماء فرحًا. والعذراء لا ترضى أن يهلك بشرٌ افتداهم ابنها بدمه، في عذاباتٍ أبديّةٍ، وتحرص على أن يستعيدوا حرّيّة أبناء الله. ولذلك هي تطلق صيحات تحذيرٍ قلقةً، منذرةً أبناءً يعبثون، بلا وعيٍ،

على شفير هاويةٍ، قد تبتلعهم في كلّ لحظةٍ. بلجاجة الأُمومة تدعوهم إلى التوبة والتحوّل عن دروب الخطيئة، وإلى الاستعاضة عن الاكتفاء بخرّوب الخنازير، بالجلوس على مائدة الآب.

حيال نُذُر طوفان الهلاك الأبديّ، تبعث رسائل فاطمة أنوار رجاء الخلاص.

صلوات الرؤاة الصغار وتضحياتهم تؤلّف، مع قلب مريم الطاهر، درعًا ضدّ قوى الجحيم، ودعوةً إلى ارتداد الخطأة: «**ينبغي أن يرتدّ البشر، ويستغفروا عن خطاياهم... ويُقلعوا عن إهانة ربّنا... فحسبه ما يُلحَق به من إساءات!**».

والسبيل إلى الارتداد هو ممارسة الصوم والتضحية.

الصوم هو «صلاة الجسد»، وتطهُّره من المادّيّة والرفاه المفرط اللذين يفضيان بالنفس إلى الاختناق.

والتضحية هي الحبّة التي تموت في التربة كي تنبت حياةً جديدةً، وتؤتي ثمرًا. الصوم والصلاة يشحذان الإرادة في

صراعها ضدّ الأَهواء، وينمّيان الطاقة على اتّخاذ خياراتٍ بطوليّةٍ.

يسوع نفسه، قبل مباشرة رسالته، صام أَربعين نهارًا وأَربعين ليلةً. ولطالما أَنذر تلاميذه بأنّ الأَرواح الشرّيرة لا تُقهَر إِلاّ بالصلاة والصوم.

بمعزلٍ عن الصوم والتوبة، تجفّ الحياة الروحيّة. فهما سرّ القداسة، والانجازات العظيمة، الرائعة، الباقية.

بالصوم يستعيد الجسد النور والقدرة على الصلاة، وبالتوبة يكتسب قدرةً على تحويل الصلاة إِلى حياة.

وقد أَلحّت رسائل فاطمة على ضرورة التحرّر من الخطيئة، عبر الصوم والتوبة. الملاك، أَوّلاً، ثمّ العذراء، أَلحّا على ضرورة تقبّل التضحية، بوعيٍ وسخاءٍ، وحبٍّ، في سبيل ارتداد الخطأة. وقد استجاب الرؤاة الصغار لهذه الدعوة بسخاءٍ بطوليٍّ، ووعيٍ تامٍّ، وكانوا مثالاً رائعًا لشبيبةٍ تترعرع في أَحضان رفاهٍ يجعل قبول التضحية والحرمان شاقًّا، وغير منطقيٍّ، رغم ضرورته اللازمة لتكوين الطباع المسيحيّة.

التكفير... تضامن الحبّ

إنّ من اعتملت في نفسه نوازع التوبة الصادقة، التهبت فيه إرادة التضامن مع سائر الخطأة، والرغبة في التكفير عن خطاياهم.

وإنّ أدنى مبادرة حبٍّ كفيلةٌ بالارتقاء بالبشريّة، وبافتداء الإنسان من الشرّ والهلاك. وما دام في حنايا الإنسان شرارة خيرٍ، فالفرصة متوفّرةٌ لنشوب حرائق خيرٍ شاملة.

إنّ الله يحتاج إلى الإنسان، ويقتضي تعاونه، مثلما اقتضى تعاون تلك التي قالت «نَعَم»، بلا تحفُّظٍ. والله يقابل أدنى مبادرة حبٍّ من أبنائه بالمعجزات. فحسْبُه صلاةٌ، أو تضحيةٌ أو التفاتة قلبٍ، لمحو ألمه، الناجم عن ضلال بنيه.

التكفير واجبٌ على المؤمن من أجل خلاص من لا

يؤمن... واجبٌ على من يرجو من أَجل مساندة من فقد الرجاء... وواجبٌ على من يحبّ من أَجل إِسعاد من لا يحبّ... وواجب تضامنٍ على من ينعم بالنور حيال من غرقوا في غياهب الضلال.

والأُمّ السماويّة تجمع، من حولها، خيرة أَبنائها كي تؤلّف «جيش تعويضٍ»، بممارسة الصلاة، والتضحية، وبذل الذات، كي يؤوب جميع الذين ضلّوا إِلى جادّة الخلاص. ولقد كان يسوع، بكرُ هذه الأُسرة، في ذلك النهج، النموذجَ والدليلَ، إِذ أَخذ على عاتقه ذنوب إِخوته كي يكفيهم شرّ العقاب.

والمؤثّر في حَدَث فاطمة هو استجابة الرؤاة لطلب العذراء في هذا الشأن، استجابةً لم يشُبْها تردّدٌ ولا تحفّظٌ، وتضحيتهم السخيّة بذواتهم من أَجل ارتداد الخطأة.

الاعتراف والمناولة

العذراء مريم هي، دائمًا، إلى جانب يسوع، في اتّحاد الأُمّ وابنها، كي تهبه للبشر. تسير معنا كي تقودنا إليه، فهو نبع الخلاص الذي لا ينضب.

عندما تحدّثنا العذراء، فهي تحدّثنا عن يسوع وحبّه، حبٍّ دائم الجاهزيّة، سخيٍّ، شاملٍ، حبٍّ لا يدركه العالم، وغالبًا ما يرفضه.

يسوع هو الخبز الحيّ الهابط من السماء، والذي لا يمكن تذوّقه، إن لم نستقبله في نفوسنا. قد يصعب فهم حضوره الفعليّ في القربان، ولكنّ العذراء تؤكّد ذلك برقّةٍ وإلحاحٍ، كي تقنعنا؛ إنّها تقول: «افعلوا كلّ ما يقوله لكم». وهو يقول: «من يأكل جسدي، ويشرب دمي، فله الحياة الأَبديّة، وأنا أُقيمه في اليوم الأَخير».

ولكن بما أَنّ عوائق تنهض حائلةً دون انفتاحنا على موهبة الحياة والخلاص هذه، مثل الخطيئة، فالعذراء تكلّمنا برقّةٍ كي تحوّل قنوطنا رجاءً، وتحوّل موتنا قيامةً فَرِحةً. وهي تؤكّد لنا رحمته. إنّها تظهر حين يكون العالم في أَشدّ حاجةٍ إلى ظهورها، وتدعونا إلى قراءةٍ متأنّيةٍ للإنجيل، بُغيةَ إعتاقنا من عبوديّة المادّيّة، وتذكيرنا بمصالحنا الروحيّة. وتساعدنا على التصالح مع ابنها، بواسطة الاعتراف، ونيل الغفران، والتوبة الصادقة.

وفي ظهورات فاطمة موقعٌ خاصٌّ وهامٌّ للإفخارستيّا. فظهور الملاك الأَخير، في خريف عام ١٩١٩، واكبه استعراضٌ مؤثّرٌ لهذا السرّ القدسيّ. إذ رأى الرعاة الصغار رموزًا فائقة المغزى لمعاني الإفخارستيّا، وتناولوا من يد الملاك جسد الربّ ودمه، بعد أَن لقّنهم الصلاة التالية:

«أَيّها الثالوث الفائق القداسة، الآب، والابن، والروح القدس، إنّي أَعبدك بعمقٍ، وأَقدّم لك جسد يسوع الثمين، بدمه، ونفسه، وألوهته، الحاضرين في هياكل الأَرض كلّها، تكفيرًا عن الإهانات وأَعمال التدنيس، واللامبالاة التي يُهان

بها. وبحقّ استحقاقات قلبه الأَقدس، وقلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ، أَلتمس منك ارتداد الخطأة».

وفي ظهور العذراء بتاريخ ١٣ تمّوز ١٩١٧، وبعد أَن أَرت الأَطفال جهنّم وأَهوالها، قالت السيّدة: «للحؤول دون هذا المصير، سآتي وأَطلب منكم المناولة التعويضيّة في أَيّام السبت الأَوّل من كلّ شهر، وإِذا تحقّقت رغبتي بهذا الشأن، عمّ السلامُ العالم».

استجابةً لرغبة العذراء أَصبح فرنشيسكو ملاك الإِفخارستيّا، يقضي ساعاتٍ طوالاً في الكنيسة، ساجدًا أَمام بيت القربان.

واليوم تُختتَم كلّ التجمّعات الكبرى في ساحة فاطمة بالقدّاس والإِفخارستيّا، حيث يجد القوم يسوع حيًّا في قلوبهم. وكم من الأَبناء الضالّين الذين أَثخنتهم الخطيئة بالجراح، يعودون إِلى البيت الأَبويّ! وكم تمتدّ أَرتال طالبي الغفران أَمام كراسي الاعتراف، التماسًا لصفحٍ يوطّد في النفس السلام!

تكريم قلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ

لقد أَكّدت الأُخت لوسيّا أَنّ العنصر الأَبرز في رسائل فاطمة هو الدعوة إِلى تكريم قلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ، وقد باحت لمعرّفها، عشرين سنةً بعد الظهورات: «إِنّ قلب مريم الطاهر هو ملاذي، ولا سيّما في أَشدّ الأَوقات حَرَجًا. إِنّه دائم التيقّظ والسهر على أَضأل بناته شأَنًا. ولكم يشدّ هذا اليقين من عضدي، ويواسيني! ففي هذا القلب أَجد القوّة والعزاء. إِنّه القناة التي يُسيل اللّه، عبرها، إِلى نفسي، وفرة نِعَمه. فساعدني، يا أَبتِ، على أَن أَظلّ شاكرةً لإِشارات الرحمة هذه، وأَن أَستجيب لها».

وكانت القدّيسة الصغيرة هياسنت، قُبَيْل مغادرتها هذه الفانية، قد أَوصت قريبتها ونجيّتها لوسيّا: «قولي للعالم أَجمع

إنّ اللّه يهبنا نِعَمه بواسطة قلب مريم الطاهر، المنزّه من كلّ لوثةٍ، فمنه ينبغي أَن نطلبها».

أَبرز عنصرٍ في رسائل فاطمة هو، إِذن، تجلّي قلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ لعالم اليوم، بُغيةَ خلاصه، فهذا القلب المقدّس هو موجزٌ وتفسيرٌ للحياة الداخليّة الثرّة، التي خاضتها تلك التي دعاها رسول العليّ «ممتلئة نعمةً». ومن ولج إِلى محراب هذا القلب يسعه التأكّد بأَنّه شرع يعرف هيكل اللّه كلّيّ الطهر، المتمثّل في مريم.

لقد ابتغى يسوع تكريم قلب أُمّه سبيلاً إِلى خلاص الأَفراد والجماعات. فكما أَنّ الوصول إِلى الآب يتمّ عبر الابن، كذلك الوصول إِلى الابن يتمّ عبر أُمّه.

وفي فاطمة استُهلّ عهدٌ جديدٌ، هو عهد قلب مريم الطاهر.

التكريس لقلب مريم الطاهر

من أَجل الظفر بمعونة قلب مريم الطاهر، لا بدّ من التكريس له، تكريس الأَفراد والمجتمعات والدول.

التكريس هو تقدمةٌ للّه، من أَجل العيش في معاهدةٍ معه. إِنّه دليل انتماءٍ إِلى اللّه، في احترامٍ لشرائعه، ووفاءٍ لحبّه، وشهادةٍ لحمايته.

لمَ تطالب العذراء بالتكريس لقلبها الطاهر؟ لأَنّها المرأة التي اختارها اللّه، من أَجل إِعادة توثيق المعاهدة معه التي أَبطلتها الخطيئة. ولأَنّها الوسيطة الكفيلة بتحقيق خلاصنا. بموجب هذا التكريس، يلتزم المسيحيّون بحياةٍ تتوافق كلّيّةً مع إِرادتها تمجيد اللّه.

بطلبها التكريس لقلبها الطاهر، تبتغي العذراء أَن نستعين

بقدرة حبّها الأُموميّ وجدواه، كي تربطنا بيسوع ابنها، وبالآب الذي أنبت عمل الخلاص من قلبها.

وقد طالبت العذراء، على نحوٍ خاصٍّ، بتكريس روسيّا لقلبها الطاهر، وما انفكّت الأُخت لوسيّا تلحّ لدى البابوات المتعاقبين من أجل تحقيق هذا المطلب، وفقًا لمقتضيات الأُمّ السماويّة، أي أن يكون التكريس علنيًّا، يشترك فيه، مع البابا، كلّ الأساقفة الكاثوليكيّين في العالم، وتذكر فيه روسيّا صراحةً. فقد عُهِد عن الشعب الروسيّ تكريمه الراسخ للعذراء، في حين دأبت السلطات الشيوعيّة على اضطهاد كلّ مظهرٍ دينيٍّ، وعلى فرض الإلحاد.

ولا غروَ أنّ من أبرز ثمار تكريس روسيّا لقلب مريم الطاهر، كان انهيار النظام الشيوعيّ الإلحاديّ، مع كلّ ما كان يتسلّح به من عتادٍ عسكريٍّ منيعٍ، ومن جهازٍ بوليسيٍّ كثيفٍ وعنيفٍ، ومن دعاوةٍ إعلاميّةٍ خبيثةٍ، ماكرةٍ، استطاع، بواسطتها، تضليل وإغواء «حتّى المختارين أنفسهم» (متّى ٢٤: ٢٤).

كان لينين قد قال: «إنّ ثورتنا دوليّة. سنبدأ من روسيّا، ومن شبه الجزيرة الإيبيريّة، ثمّ سنزرع الثورة في أوروبّا...» وربّما كان انتصر أعداء الله، لولا ظهورات فاطمة.

وكان نيتشه قد تنبّأ: «إنّ العدميّة الشيوعيّة تنذر بزرع، في كلّ مكانٍ، لا الضلال فحسب، بل أيضًا، كلّ ثماره، أي الحرب والموت».

وفي فاطمة أشرقت على عالمنا القلِق منارة رجاءٍ ضدّ الشيوعيّة المنذرة باكتساح العالم.

وكان الأب القدّيس مكسيمليان كولبي، قد تنبّأ: «حقبتنا هي حقبة المنزّهة من الدنس. إنّ الحيّة ترفع رأسها على الأرض كلّها، غير أنّ المنزّهة من الدنس ستسحقه بانتصاراتها الحاسمة، مع أنّ الحيّة لا تنفكّ تترصّد عقبها. وستنشب معركةٌ كبرى، تحت راية المنزّهة من الدنس، وسنجعل هذه الراية ترفرف فوق قلاع أمير الظلمات. ستنطفئ، تدريجيًّا، نيران الهرطقات والشقاقات، وبفضل المنزّهة من الدنس، ستؤوب أكثر قلوب الخطأة قسوةً إلى الله وإلى قلب مريم

المفعم حبًّا... وهكذا سيتحقّق ما توقّعته الطوباويّة كاترين لابوريه، التي أَوحت لها المنزّهة من الدنس بالإِيقونة العجائبيّة، أي إِنّ العذراء ستصبح «ملكة العالم أَجمع»، وملكة كلّ فردٍ.

السلام

وفي رسائل فاطمة دعوةٌ ملحّةٌ إِلى السلام، وسعيٌ دائمٌ إِلى إِحلاله.

يسوع أَعلن: «**طوبى لصانعي السلام، فإِنّهم أَبناء اللّه يُدعون**».

السلام هو تطويبة الحياة الحقّة، هو البُعد الذي يجعل البشريّة تنمو بصفتها أُسرة اللّه، في اتّحادٍ معه، رغم النزعة إِلى الشرّ التي تخلّفها نتائج الخطيئة في النفس البشريّة.

عندما وُلد المخلّص، بشّر الملائكةُ العالم بالسلام. السلام هو ضمان تقدّم البشريّة في جوٍّ من الوئام والأُخوّة. إِنّها بذرةٌ تهبط من السماء، ولكنّها تجد في قلب البشر التربة التي تساعدها على النموّ وإِيتاء الثمر. ولا يتحقّق السلام ما لم

ينبع من القلب، أَي من جاهزيّة حبٍّ لا تحفُّظ فيه، ولا حساب لمصلحة. إنّه رسالة الأَب السماويّ إِلى أَبنائه على الأَرض، تحقيقًا للتجسّد.

لذلك تودّ العذراء أَن تكون أَداة سلامٍ، وتعبّر عن بالغ قلق الأُمّ، إِذ ترى أَبناءها يمزّق بعضهم بعضًا في العنف والمظالم. ولذلك تدعوهم إِلى التفاهم، وإِلى عمل كلّ ممكنٍ في سبيل حياةٍ أَخويّةٍ، إِذ إِنّ مشاريع البشر كلّها صائرةٌ إِلى فشلٍ، بمعزلٍ عن السلام.

والسلام الذي تدعو إِليه العذراء ليس صمت السلاح، ولكنّه لغة النفس التي تصبح شاهدًا على الحقيقة والخير، نابذةً الكراهيّة، والأَنانيّة، والاعتداد بالذات. وليس السلام محاولة احتواء الخلافات في حدود تسوياتٍ سياسيّةٍ، بل هو رغبةٌ صادقةٌ في القضاء على كلّ خلافٍ، في تبادلٍ صادقٍ. في لغة العذراء، السلام هو جذر الحياة التي تجد في اللّه منشأها وغايتها. وهذا السلام يؤتي المجتمع الحبّ، والعدل، ويسبغ على الحياة قوّةً جديدةً.

وقد حفلت رسائل فاطمة بالدعوة إلى السلام، «الخير الأهمّ، والأشدّ ضرورةً». فمنذ مطلع الحدَث قال الملاك: «لا تخافوا، أنا ملاك السلام». وفي ظهوره الثاني أرشد إلى وسائل الظفر بالسلام: «ضحّوا بكلّ شيءٍ، وقدّموا هذه التضحيات للربّ بمثابة تكفيرٍ. وهكذا ستجلبون لوطنكم السلام».

ولم تكفّ السيّدة العذراء عن الدعوة إلى الصلاة، ولا سيّما تلاوة المسبحة الورديّة، التماسًا لحلول السلام في العالم. لم تطلب نقل الصراع إلى المضمار السياسيّ، أو إلى التماس الأمان في السلاح، بل أنذرت بأنّ النصر النهائيّ لن يتمّ إلاّ في الحقل الروحيّ، وأنّ السلام لن يكون إلاّ مكافأة الارتداد والتوبة.

جهنّم والمطهر

وفي رسائل فاطمة إِشاراتٌ صريحةٌ ومؤثّرةٌ إِلى جهنّم والمطهر. وكان لرؤية جهنّم، وعذابات الخطأة فيها، تأثيرٌ بليغٌ وحاسمٌ على أَذهان الرؤاة وعلى سلوكهم.

الإِنسان يختار مصيره الأَبديّ بنفسه. حرّيّته إِرثٌ يديره بكامل مسؤوليّته. هذه المسؤوليّة هي «مخاطرة اللّه الكبرى»، ولكنّها، في الآن عينه، «كرامة المخلوق السميا».

وليس اللّه هو الذي يعاقب انتقامًا، بل إِنّ الإِنسان، بعصيانه اللّه، يعاقب نفسه. فالخطيئة هي السبب المباشر لكلّ عقابٍ، ولا ريب أَنّ رفض اللّه هو مصدر أَدهى عذاب للإِنسان. وقد يكون العذاب وسيلة إِصلاحٍ وإِثمارٍ، مثل تشذيب الكرمة والشجرة.

بمناسبة ظهورها في تمّوز ١٩١٧، أَنذرت العذراء من المآسي الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة التي خضّت القرن العشرين، وحضّت على التوبة والتكفير، لتجنّب العقوبات التي تسبّبها الخطايا.

إِنّ مبادرات العذراء «وقائيّة»، وليست «عقابيّة».

المسكونيّة والوحدة

وتتضمّن رسائل فاطمة دعوةً إلى المسكونيّة والوحدة. فتمزُّق الكنيسة خطرٌ على الإيمان. وإنّما غاية التجسّد هي جمع البشر حول ألوهة يسوع. وإنّما المسكونيّة مشروع صداقةٍ إلهيٌّ، وشهادة شعب اللّه على إيمانه، ودليل التزامه الثابت بالقضاء على كلّ ما من شأنه زرع الفرقة بين أعضائه.

والعذراء معلّمة المسكونيّة. حضورها يدفعنا ويساعدنا على جبر ما تحطّم، ولمّ شمل ما تفرّق، وترميم ما أطاحت به الكراهيّة، في النور والمحبّة. وما إلحاح العذراء من أجل ارتداد روسيّا إلاّ خطوةٌ على درب المسكونيّة المنشودة.

السماء تساند الرؤاة وتدعم الحدث

في سبيل تأكيد صحّة الظهورات، غالبًا ما يتعرّض الرؤاة لامتحاناتٍ قاسيةٍ ومنهكةٍ. ولكن، عندما يختار اللّه شخصًا لمهمّةٍ ساميةٍ، يمنحه، دائمًا، النور والقوّة الضروريّة للنهوض بها، إن هو بقي وفيًّا وجاهزًا.

ومنذ بدء ظهورات فاطمة كان الرؤاة الأَطفال هدفًا لمواجهاتٍ عسيرةٍ. فأُمّ لوسيّا نفسها كانت تعدّهم ضحايا وهمٍ، لا بل مهووسين كذّابين، وكان ذلك يُسيل إلى قلبهم الإحباط والمرارة.

لقد تعرَّض الرؤاة الصغار لجلجلةٍ مرهقةٍ، ولكنّها لم تنلْ من ثباتهم وسداد منطقهم، ولا من ثقتهم بالسيّدة «البيضاء»، ومن مساندتها لهم. حضورٌ فائق الطبيعة كان يلفّهم، محوّلاً خجلهم إلى طاقةٍ فائقةٍ، مصمّمةٍ، وشجاعةٍ.

فذات يومٍ قالت العذراء للوسيّا: «يا ابنتي، هل تتألّمين كثيرًا؟ لا تقنطي، فلن أتخلّى عنك أبدًا. وسيكون قلبي الطاهر، لك، الملجأ، والدرب الذي سيقودك إلى الله».

لقد اختار الله ضعف أولئك الثلاثة الصغار لكي يخزي مدّعي الحكمة.

وكان على أولئك الأطفال، الواثقين من صدق ما رأوا ورووا، أن يتحمّلوا شكوك السلطات الدينيّة أنفسها، التي تفرض عليها مسؤوليّاتها موقفًا مبدئيًّا يتّسم بالحيطة والحذر. وكما يحدث غالبًا، تكوّن، حول الظاهرة، فريقٌ مندفعٌ يؤيّد، وآخر مشكّكٌ يقاوم ويناهض. وتعرَّض الرؤاة لكثيرٍ من الاتّهامات والقدْح، قبل أن تُصدر السلطات الكنسيّة حكمًا إيجابيًّا غير مُلزِمٍ.

ونظرًا لما انطوت رسائل فاطمة من توقّعاتٍ خطيرةٍ عن مصير العالم والكنيسة، بلّغها رعاةٌ أطفالٌ أُمّيّون، اقتضت دراسة هذه الأقوال تمحيصًا دقيقًا وطويلاً، فأُخضع الرؤاة لاستجواباتٍ مرهقةٍ، ولجمٍّ من الافتراءات. ولم يصدر عن أُسقف «ليرا»

حكمٌ إيجابيٌّ، فرضته العجائب، والثمار الروحيّة الوفيرة، إلاّ بعد ثلاثة عشر عامًا. وكان، في هذه الأَثناء، اثنان من الرؤاة، وهما الأَصغر سنًّا، قد رحلا إلى السماء، فيما قُيّض لثالثتهم، لوسيّا، أَن تواصل النضال حتّى أَيّامها الأَخيرة.

جوُّ المِحَن هذا فجّر لدى الرؤاة اندفاعًا سرّيًّا نحو القداسة، أَيّده عونٌ إلهيٌّ. وقد تجلّى ذلك، بوضوحٍ، في تحمّل فرنشيسكو وهياسنت مرضهما تحمّلاً بطوليًّا. فقد قابلا الأَلم بسجوّ نفسٍ، وباستعدادٍ كاملٍ لتقبّل مشيئة الله. وتحوّل الأَلم إلى تضحيةٍ تكفيرًا عن خطايا البشر، بفرحٍ، حبًّا بيسوع.

استشهادٌ معاشٌ مع العذراء، وبطولةٌ مدهشةٌ لدى طفلين بالغَي الهشاشة.

يسوع قال: «إن أَبغضكم العالم، فقد أَبغضني قبلكم».

وإنّما مواقف العداء من حَدَثٍ فائق الطبيعة، هي دليلٌ على مصداقيّته. فإبليس يدأب على محاربة كلّ ما يدعم ملكوت الله، وكلّ حركةٍ إيمانيّةٍ تضع الإنسان على درب الربّ. وهو يهتاج، ويقاوم بشراسةٍ، كلّ حضورٍ للعذراء.

لقد كان موقف أَعداء الدين من ظاهرة فاطمة دليلاً ساطعًا على هذه المقاومة الشرسة، فبقدر ما كان يتنامى اهتمام المؤمنين بالظهورات، كان يتفاقم، حدّةً وخبثًا، هجوم الملحدين، وأَنصارهم في السلطة الرسميّة، والماسونيّين الذين استشفّوا في الظواهر السماويّة، وفي اعتناق الجماهير لها، خطرًا يهدّد مخطّطاتهم بالانهيار.

وحيال ثبات إِيمان الشعب، واندفاعه الشجاع، سرعان ما تحوّلت حرب أَعداء الله الكلاميّة، القائمة على التهكّم والسخريّة والافتراء، إِلى اضطهادٍ سافرٍ، لم يحدّ من عنفه صِغَر الرؤاة وبراءتهم. فلم يتورّع عمدة «ڤيلاّ نوڤا دي أوريم» الماسونيّ، من سجن الأَطفال مع مجرمين عتاةٍ، ومن تهديدهم بأَشنع أَساليب القتل الوحشيّ.

وتلا ذلك سدّ المنافذ المؤدّية إِلى مواقع الظهورات، ومقاومة الحجّ والحجّاج، ونسف مزار العذراء المشاد حديثًا بالديناميت.

غير أَنّ أَبواب الجحيم لم تقوَ على حدَثٍ تدعمه السماء.

وانتصرت ظاهرة فاطمة بتجلّياتها المذهلة، وقد قال الكردينال «سيريجيسرا»، في هذا الشأن «ليست الكنيسة هي التي فرضت حدَث فاطمة على المؤمنين، بل إنّ حَدَث فاطمة هو الذي فرض ذاته على الكنيسة».

من ثمارهم تعرفونهم

الثمار الروحيّة هي الدليل الدامغ على مصداقيّة أَحداثٍ فائقة الطبيعة. وقد كان حصاد ظاهرة فاطمة وفيرًا. فما أَكثر القلوب التي خضّتها، والمسارات التي حوّلت منحاها، وحركات اليقظة التي أَطلقتها!

التحوّل الأَوّل تحقّق لدى الرؤاة أَنفسهم. ففرانسوا وهياسنت أَثبتا بلوغ قمّةٍ من القداسة تتخطّى سنّهما شأوًا بعيدًا. فكانا، في مضمار الروح، أَطفالاً معجزةً. وكذلك كانت لوسيّا، في بساطتها، وتجرّدها، ووفائها، وجرأتها البطوليّة.

وأَضحت فاطمة دعوةً إِلى الصلاة، ومدرسةً للحياة المسيحيّة، ونموذجًا للتجدّد. واستجاب لرسالتها أَقوامٌ من كلّ جنسٍ ولونٍ، ومن كلّ ثقافةٍ ومشربٍ، اكتشفوا في تلاوة

المسبحة الورديّة، وفي التكريس لقلب مريم الطاهر، أكثر الأسلحة جدوى من أجل مقاومة التراخي الدينيّ، والمادّيّة الملحدة.

ونشأت «جماعات الصلاة»، ومواكب «الحجّ المريميّ» التي أذكت، في قلوبٍ كثيرةٍ، حرارةً روحيّةً. فانعتقت نفوسٌ عديدةٌ من أسر الخطيئة، وآبت إلى مسيرةٍ مستقيمةٍ، وإيمانٍ وفيٍّ ثابتٍ.

غير أنّ لكثيرين آذانًا تأبى السمع، وعيونًا تأبى الرؤية!

افتحوا قلوبكم

لقد توخّت عذراء فاطمة وقاية العالم من اجتياح الإلحاد، وإنقاذ البشر من الموت الذي كان يرفرف فوق تاريخهم. وكان للعالم الخيار بين التوبة والكوارث. ولكن خُيِّل إلى البعض أنّه ضربٌ من العار، وإهانةٌ للتقدّم العلميّ، الإصغاء إلى إنذارات السماء التي بلّغها ثلاثة أحداثٍ رعاةٍ، لا ثقافة لديهم، ولا مستوًى اجتماعيّ.

رفض العالم المثقّف رسالة فاطمة، وعدّها خرافةً وسخافةً، فانزلق إلى حربٍ مدمّرةٍ، لم يُشهَد لها مثيلٌ من قبل.

حتّى الذين آمنوا، لم يستجيبوا لطلبات مريم، أو استجابوا بفتورٍ، فدعوة الرفاه والمتعة كغايةٍ للوجود، تغلّبت على دعوات الحقّ والنعمة والرحمة. وتردّى العالم إلى وهاد

الخوف والقنوط. بدّدت البشريّة ميراثها من الثقافة المسيحيّة، فعهدت أكثر أيّام تاريخها مأسويّةً.

غير أنّ حبّ الأُمّ السماويّة وعطفها لا عهد لهما بقنوطٍ، ونبع نِعَمها لا يكفّ يتدفّق. إنّها تقرع، بلا انقطاعٍ، وبإلحاحٍ، أبواب قلوبنا، سائلةً أن نفتحها كي نتفادى عواقب الخطيئة الوبيلة التي تغلق النفوس على رفض الله، لأنّها لا تني تعرض وساطتها لمصالحتنا مع الله.

«**إنّني أمّكم، وقد جئت أعلّمكم الحبّ!**».

لذلك تطلب تحوّل القلوب نحو أنوار الإنجيل، كي تتحرّر من عبوديّة الخطيئة، وتُقلع عن مقاومة النعمة الإلهية. إنّها تبذل كلّ الجهود الممكنة كي تكتسب القلوب، ولا تخفي ألمها أمام لامبالاة الخطأة حيال دعواتها. وقد يتحوّل إلحاحها إلى التماسٍ رقيقٍ، ولكنّها تدع للإنسان كامل حرّيّته في تقرير مصيره. إنّها تعمل بصمتٍ، ولكنّها تعمل بلا كللٍ، ولا تني تنادي: «**افتحوا قلوبكم!**»

وتعلّمنا أنّ الصلاة قادرةٌ على حلّ كلّ مشاكلنا. فحسبنا أن

نخطو الخطوة الأولى كي تفتح لنا السماء أَبوابها، فرحةً بعودة الابن الضالّ إِلى جادّة النعمة والحبّ.

ويبقى المستقبل للعذراء، ولقلبها المنزّه من كلّ لوثةٍ. فالعذراء هي الوحيدة الكفيلة بهزم قوى الجحيم، وبسحق رأس الحيّة، وبإِعادة العالم إِلى ابنها يسوع، كي يقدّمه يسوع إِلى الآب.

الفهرس

الفصل الأوّل: طفولةٌ ملائكيّةٌ	**٥**
بلدة فاطمة	٧
الرؤاة	٩
لوسيّا	١٥
لوسيّا وابنا عمّتها: فرنشيسكو وهياسنت	١٩
الملاك السابق	٢٥
ربيع عام ١٩١٦: «أَنا ملاك السلام»	٢٩
ظهورٌ ملائكيٌّ ثانٍ، في صيف ١٩١٦	٣٣
الظهور الملائكيّ الثالث في كابيصو، خريف عام ١٩١٦	٣٦

الفصل الثاني: ظهورات العذراء الستّة:
من ١٣ أيّار حتّى ١٣ تشرين الأوّل ١٩١٧ ٣٩
الظهور الأوّل ٤١
ظهور العذراء الثاني: ١٣ حزيران ١٩١٧ ٥٢
الظهور الثالث: ١٣ تمّوز ١٩١٧ ٥٩
١٣ آب: الطوبى لكم إذا اضطهدوكم من أجل اسمي ٧٢
١٣ آب: ظواهر خارقةٌ، في غياب الرؤاة ٨٤
ظهور ١٩ آب ٨٧
الخميس ١٣ أيلول: ظهورٌ رائعٌ ٩٣
الظهور السادس: ١٣ تشرين الأوّل ١٠١

الفصل الثالث: سيرة الرؤاة بعد الظهورات ١١٣
فرنشيسكو ١١٥
هياسنت: ضحيّة التكفير عن الخطأة ١٢٥
لوسيّا في مدرسة الألم ١٣٧

ظهوراتٌ في «توي» و«پونتيڤيدرا» ١٤٧
أشفيةٌ... وطوفان رحمةٍ ١٦٥

الفصل الرابع: حجٌّ، وتكريسٌ، وأسرارٌ، ورسالةٌ ١٦٩
الحجّ إلى فاطمة يتكشّف، متحدّيًا السلطات ١٧١
تكريمٌ وتقديسٌ لقلب مريم الطاهر ١٨٠
لوسيّا وأَسرار فاطمة ١٩٨
البابا يوحنّا بولس الأَوّل، وسرّ فاطمة ٢٠٧
البابا يوحنّا بولس الثاني، وسرّ فاطمة ٢٠٩
لوسيّا راهبةٌ كرمليّةٌ ٢٢٥

الفصل الخامس: رسائل فاطمة وثمارها ٢٣٣
رسائل فاطمة والإنجيل ٢٣٥
الصلاة ٢٣٨
الارتداد والتوبة ٢٤١
التكفير... تضامن الحبّ ٢٤٤

الاعتراف والمناولة	٢٤٦
تكريم قلب مريم المنزّه من كلّ لوثةٍ	٢٤٩
التكريس لقلب مريم الطاهر	٢٥١
السلام	٢٥٥
جهنّم والمطهر	٢٥٨
المسكونيّة والوحدة	٢٦٠
السماء تساند الرؤاة وتدعم الحدث	٢٦١
من ثمارهم تعرفونهم	٢٦٦
افتحوا قلوبكم	٢٦٨
الفهرس	٢٧١

المطبعة البولسيّة
جونية - لبنان